ثُؤْلولْ

رواية

ميس خالد العثمان

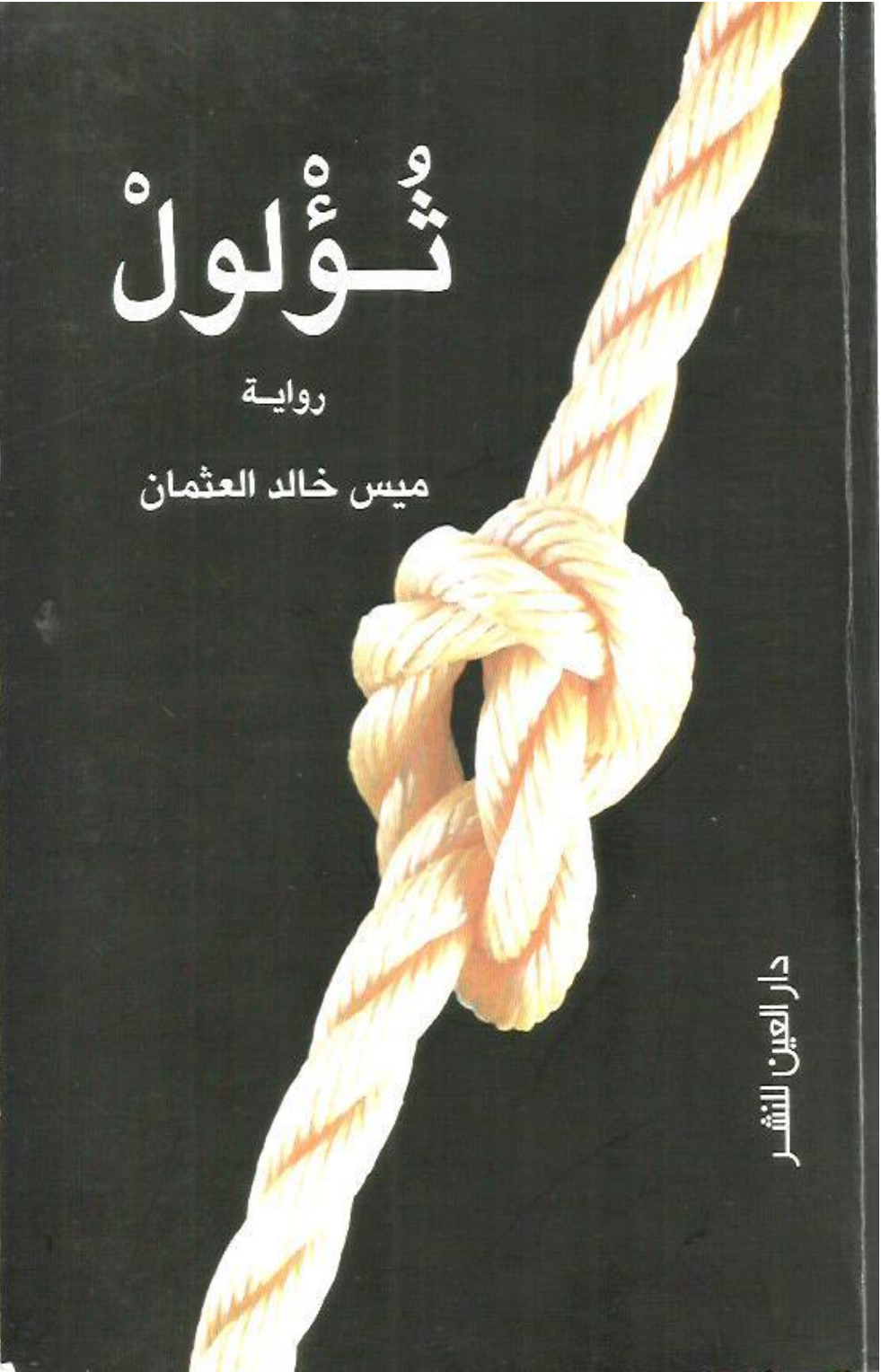

دار العين للنشر

ثُـؤْلولْ

ثُؤْلولْ

رواية

ميس خالد العثمان

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/١٦٨٨١

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 337 - 3

ثُـؤْلـولْ

روايـة

ميس خالد العثمان

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

العثمان، ميس خالد.

ثولول: رواية/ ميس خالد العثمان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٣٣٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٦٨٨١ / ٢٠١٥

عتبة أولى

(الثؤلول): بَثْرٌ صغير صلب مستدير، يظهر على الجلد كالحُمّصة أو دونَها.. (ج) ثآليل.

(المعجم الوسيط)

الطبعة الرابعة، 2004

الإهداء

للأنثى..

التي تولَـــدُ وبين عَينيها وَسْمُ مصيرها القادم، بلا مُعجزة تُغيّره.

أنا كائنٌ لا مرئي.

كائنٌ شفافٌ لا يترك وراءَهُ إلا الخيبة والسؤال، مزيجٌ من هلامْ.

أعبرُ ممرات الدنيا ولا أشعرُ بي!

فكيف باللـه عليكم يمكن للناس أن ينتبهوا لوجودي؟

رمادية أنا.

ولا أعني شيئًا. إذ فهمت جيدا بأنني لست سوى "ثؤلول" شقّ له مكانًا على جلد عائلتي الصغيرة، فالْتصق بهم متطفلًا واحتاروا كيف يُدارون هذا التشوّه البارز عن الآخرين دون ألم؟

والثؤلول؛ أنا، توالَدَ/ تبرعَمَ، وأفرز نتوءً صغيرًا يُشبهه ويلتحم به/ بي، فيال خيبتكم العُظمى!

مع ذلك، ها أنا ذا أستلقي على سرير الدنيا/ الأرض الواسعة،

تحيطني فتيات مراهقتي/ دُمى "الباربـي" المزركشة بذائقة الثمانينيات، بينما أستمرئ استدعاء الأذى مثل ذبابة خضراء ضخمة تقفُ بعنادٍ على أنفي، تُؤرقني ولا تطير، أَرتبك، أهرعُ من فوري إليهِنّ، فتيات مراهقتي، وأبدأ اعترافاتي لهن.

وأنتَ يا خطيئتي التي اقترفتني وأصرّت أن تكبر أمامي، لأرعاها بسحر غريب، أخبرني، كيف لي أن أصدّق قول جدّتي "نَصْرة" بأن الحزن يبدأ كبيرًا ثم يَصْغر؟

فأنت يا "جابر" تكبر وتغدو يافعا و"تِخْلَوْ" وتقترب مني أكثر وأمتزج بك أفضل، حتى نستحيل واحدا من جديد، واحدًا مختلفا الآن، وليس كما بدأنا سويًا لحظة أول غرسة، وأول نبضة، وأول ركلة، وأول وجع وأول صيحة، وأول حضن حين تصافحت أعيننا كقَدَرٍ حتمي لم يضل طريقه أبدا!

يوم شعرتُ بعجزي التام عن العودة للوراء - الذي بات بعيدا - ولو نصف خطوة، أعود "سلوى" ابنة أبيها المُدلّة بالفهم، والمجنونة بأسئلتها الكبيرة عليها، الـ أشْعَلهَا الفضول للوصول لمعنى معقولٍ للحياة.

"جِعْدَة(*) العائلة" التي ارتدت ثوبًا يسبقها بمحض رهبة ودهشة مخاتلة والتباس في القيم.

(*) جِعْدَة: آخر العنقود في اللهجة الكويتية.

(1988 - 1989)

في العمر المرتبك/ المنذور لفهم أكثر لمعنى "اللـه"، كنت أنغمس وأدور/ أبحث، أعزز نفسي اليافعة بأقوال معلمة الدين لترضى تلك القوة العظيمة التي "خلقتني" و"صوّرتني" فأحسنت فعلا، و"سيّرتني" واختارت لي أيضا "شكل نهايتي وساعة موتي"، بل وحددت اسمي!

كانت معلمتنا صارمة مثل تمثال شمعي.

وبعينيها اللتين تخزنان دمعا كثيرا حين تلفظ بصوتها المرتجف بالرهبة اسم "اللـه" - جلّ جلاله - بِشامِيّتها الغريبة على مسامعنا الطرية، إذ لم تَنسَهُ يوما لتنطقة "مفردا" متجردا من "الجلال" وبإصبعها الذي لابد أن يشير نحو "الأعلى" بحيث صرتُ أُطيلُ التأمل في سقفِ غرفتي طارحةً عليهِ الكثيرَ من أسئلتي الطفلة

وأنتظر الإجابة، لأن المعلمة تؤكد، يقول اللـه - جل جلاله - لعباده:

"ادعوني استجب لكم..."

لكني كنتُ أغفو قبل ذلك دومًا.

كنت في الثالثة عشرة، في العمر المرتبك المنذور للفهم الأوّلي لإلهٍ يُخيفني كل يومٍ أكثر.

ودين صارِم/ صادِم يُسمي الاعتداء على أمنِ الآخرين وحُرياتهم وسُكون أيامهم "فتحًا مبينا"، ويطلب من النساء غطاءً متشددًا يداري الجمال الممنوح لهن، بل ويَعِدُ "السافراتِ" منهن بعذاب عظيم يوم القيامة!

وصرنا، صديقتي "سحر" وأنا نبتلع بمرارة ليل الخميس ونخاف، فلا نبتهج بيوم عطلتنا اللاحق، مترقبات لـ "يوم القيامة" بعدما تعاهدنا أن نحمي بعضنا من أهواله حينما "ينفخ في الصور"، إذ أكدت معلمتنا أنه "وعدُ اللـه" الآت بلا ريب في يوم جمعة، يوم عطلتنا الأسبوعية وراحتنا.

كنت أصحو مرتعبة كل جمعة.

أغسل جسدي بالماء - دون أن أدقق النظر بتفاصيله - كما

حذّرتنا معلمتنا، ثم أضع وشاح الصلاة الزهري وأحاول كثيرا الخشوع.. ولا أقوى!

كنت أخفض رأسي ليلامس ذقني أول صدري محدّقة بنقوش سجادتي وألوانها المتداخلة دون حرفيةً، وأطوف بعينيّ لأصلَ خطوطها الذائبة لتكوين كلمة ما، أيٌّة كلمة بلا معنى محدد.

وأنتبه!

أنتبه في العادة مع وصولي للتشهّد الأخير إلى أنني فَقدتُ اتصالي مع "اللـه"، وأفزعْ!

أنفضُ تشتتي بالسلام يمينا ويسارا.

أطير للشباك بثوب صلاتي الطويل مخاطبةً رب السماوات والأرض دعاءً لعله يستجب:

"يـــا إلهنا الكبيـــر، أجّل يــوم القيامة، لأنني خائفـــة جدا، هل تَسمح"؟

أخشى فعلي هذا فأتخلصُ من ثوب الصلاة الزهري.

أغادر قفزا باتجاه المطبخ، نحو أمي، لتبدد ابتسامتها كل الخوف، وأنغمس كطفلة تنسى سريعًا رهبتها مع أول مثير يسترعي حواسها، أنهي فطوري الغني باللذة، لتظهر "سحر" عبر باب بيتنا حاملة بيديها كيسا ملونا ممتلئا بالدمى، بـ"بارْبي" الشقراء، تعويذتنا

الأثيرة ومتعة سنواتنا، نظل نلهو بفتيات الفرح، ويمازج اللعب نقاشنا السري، إذ نتبادل خفية شكوكنا حول "قيامة الجمعة" و"شكل اللـه"، مع ذلك عجزنا تماما عن حُبّه بشكل خالص/ حقيقي دون أن يأتي الخوفُ منه والخشيةُ من قيامته وعذاباته أولا!

في الثالثة عشرة، العمر المرتبك المنذور لفهم "اللـه" وتخيل شكل رسوله، وتصوّر حرارة جهنم وتخيّل نعيم الجنة، قفز إلى بوابة الهموم، مفهوم أحدث، وأكثر تعقيدا، لكنه أتانا مباغتا/ مفاجئا ومخيفا، كما تخيلنا أن تأتينا القيامة وتبعثر أجسادنا نتفًا هنا وهناك بينما الجميع عراة!

في العمر المرتبك المنذور للاكتشاف، امتلأت قلوبنا اليافعة بمحاولات جديدة لفهم "الوطن"، و...

"نُفِخَ في الصّوْرِ" فعلا!

لكن النفخ جاء مبكرًا، ولم تقم "القيامة" نهار جمعة كما أخبرتنا معلمتنا.

بل فجر الخميس 90.

يومها، نظرنا سحر وأنا صوب اللـه، وبحنق سألناه:

"لِمَ لمْ تمنعهم عنا"؟!

استدركنا/ استذكرنا دروس "الفتوحات" وقارَنّا ما يحدث بما

حدث، وغضبنا كثيرًا، ولأننا كنا على أعتاب الرابعة عشرة، فككنا قناعاتنا الصغيرة التي بقيت أسئلة بلا "استجابة"، وقررنا أن نرميها بعيدا لأنها مضحكة وبلا قيمة، كانت كذبًا بيّنًا!

كيف لنا أن نودّع المدرسة قبل شهرين حين كنا نصيحُ "تحيا الأمة العربية" شعارًا يوميًا نَهزّ به أركان المدرسة ونؤلمُ حناجرنا الصغيرة لنُرضي الناظرة وتستطيل ابتسامتها، واليوم نزجي القلق سحر وأنا برسم خارطة الوطن تنزف دمًا ونبكي خديعتهم الصريحة لنا.

سحر تبث لوعتها خجلًا، بينما تضفرُ شعر "بارْبي":

"سلوى.. أبوي يقول راح نسافر"

عاجلتها متقصدة ثنيها:

"تِنْحاشُونْ(*)"؟!

لَطَمَتْني بسرعة بيدها المتعرقة:

"إحنا ما نخاف.. إحنا...

واحتارت كلماتها كيف تحتال على هجمتي.

ضحكتُ من أنفي، أضفت:

(*) تِنْحاشُونْ: تهربون باللهجة الكويتية.

"اِنتو شِنو؟ خايفين.. ترى ما مَرْ اسبوعين، يمكن يِطْلِعُونْ؟"

هَمَسَتْ:

"أبوي يخاف علّي أنا، بس مادري من شنو؟ سلوى؛ الجنود يخطفون البنات"؟؟

ما كنت أمتلكُ إجابة لسؤالٍ بدا لي حينها مرعبا وواسعا، وسرّب لقلبي شكًا جديدًا بكل شيء!

سافَرَتْ سحر وأسرتها، لأن والدها خَشِيَ عليها.

وبقينا نحن نحرس هذا التراب ونجاهد لحماية قلوبنا وما خاف أبي عَليَّ أبدًا، بل كان خوفَهُ على الكويت أكبر، صوته يرد هادئًا على قلقي لسفر صديقتي: "ربنا معانا ما يخلينا، خَليهم يسافرون"

وحدي أحمل مراهقتي وأغرق بين مفردتين كالسديم في حينها، "اللـه" و"الوطن"، أحاول كتلميذة نجيبة أن أتلمس لها تفسيرا واضحا/ مستساغًا رغما عن كل شيء.

تركتني سحر أكمل تلوين الجزء النازف من خريطتنا، وأتابع مع أسرتي بعيون مشدوهة وآذان مشنفة أخبار محيطنا المتشظي، فلا أهتم كثيرا بأنباء من راحوا ينشدون أمانا مزيفا لدى جيراننا وأبعد!

اكتفينا كأسرة تضم جدة وأمًا وأبًا وأخًا، بتكوين معجمنا الصغير الخاص الممتلئ بالحرب والخوف والخشية والدعاء والمقاومة والدم والخبز والمعلبات وأكياس القمامة ومنع التجوال والمنشورات والرصاص و"يقولون" والـ لا أدري!

نضبط بشـــكل خرافي ســـاعات ترقبنا على أصـــوات مذيعي النشرات حول العالم.

وفجأة..

فرغَ اللون الأحمر من أقلام تلويني، كما جفّ الدم في عروقي حين باغتنا "العَسْـكَر" في ليلة كنا نقضيها رفقة المذياع المرتبك بالكويت ككيان ضائع/ ضالع في التعب.

بعد وجبة مختصرة أسميناها عشاءً، في غرفتي اندَسَستُ أسفل غطائي الملوّن بالفراشات الزهرية الكبيرة، سعيدة بنتفِ الأخبار التي ردّدها أبي، كُسِرَ عنوة باب غرفتي وسقطت اللوحة المعلقة عليه!

ببساطة لم أفهمها.

ركن "الجندي" الطويل سلاحة على حائطي المخطط، بهدوء، وما استخدمه ضدي، لكنه ناداني كي أنهض قليلا، دفعتُ غطاء سريري متأهبة لأفهم ما ينتوي بينما نزع هو لباسه التحتي بسرعة

وأوجع أنوثتي جدا، صحت من ثقله/ أذاه كثيرا، دُفنتُ في غضبي/ عَرَقي وصياحي العالي وبأنفي رائحة كريهة جدا، غبتُ بعدها في حلم شاذ.. وحين صحوت كنت محاطة بوجوه أعرفها ولا تحتمل التفسير.

أمي بعيون ساهمة ملآى بالدمع، أبي وأخي، برؤوس منحنية متكئان على الجدار مكان السلاح الذي اختفى.

تأوهت بصوت مسموع.

حثتني أمي على الاغتسال فورًا، كان طعم الفكرة مرًا، سألتها بعد صمت طويل:

"كنتُ أصرخ.. أين كنُتم"!!

كانت تدعكني بعنف أوجعني كثيرا ودموعها تنهمر وتختلط بسوائل أنفها بلا انقطاع.

ما الذي حدث بالضبط!

فجرًا، حين غاب النوم عني ارتباكا، خاطبت سحر بصوت مسموع:

"لا يخطفون البنات يا سحر، لكنهم يوجعون أماكنهم الحميمة ولا أدري لماذا"!

سمعتني أمي.

وارتمت تنشج مثل مجنونة حقيقية.

نهضتُ أرفعها وأطمئنها إلى أنني بخير الآن:

"ما عدت موجوعة يا ماما"

كان مشهد الجندي بلباسه الأخضر وهو يهرس أنوثتي يتكرر في أحلامي فأصحو منزعجة جدا.

كوابيس تعيد تكرار المشهد دون إحساس، وتلك الرائحة تتأكد وأبكي صحوًا غياب والديّ عن لحظات قهري.

عدت للرسم، بصمت وعقل يتجاوز عمره التفكير.

وعلم الكويت لا يكتمل، ضاع اللون الأحمر من علبة ألواني من روحي ومن.. طَقْسي الشهري!

صيفًا، ضاعت طفولتي، ومع بوادر الخريف كان قد تكوّن جنينٌ غريبٌ بداخلي.

والتحولات الجسدية توجعني، وأصمت.

يركلني طفلُ "الغريبِ" وأخجلُ من التصريح لأمي.

ألمّ يدك ظهري الفَتي وأزفرُ تعبا/ خجلا من نظرات أبي وأخي!

لم تنفع أعشاب أمي نجيبة ولا خلطات جدتي نصرة في زرع أمل في الخلاص من تلك الخشية الكبيرة التي تخرسنا جميعا، من تلك النطفة التي استقرت وتَمَكّنتْ، وكان ضروريا أن نتفق حين فقدنا كل قدرة على الفعل، واجتمعنا نحن الخمسة، وبدت الفكرة جنونية لكنها قابلة للتحقق/ التصديق والبَلْع!

ففي غياب لأكثر من نصف أهلنا/ معارفنا وجيراننا، ستصلح قصتنا للقبول.

قالت جدتي نصرة:

"بعد هالعُمُرْ؟! من بيصدّقكم؟؟"

زَفَرَتْ أمي نجيبة:

"نلم المصيبة يا خالتي"!

بخبث لم يفاجئني كثيرا عاوَدَتْ:

وفي عزّ الاحتلال، وبعمرك هذا، واللـه ضَحّكْتيني"!

وسالم؛ أخي الأكبر لم يُعلّق، فقط عِرقهُ النافر أعلى جبينه صار أكثر وضوحا منذ ليلة الوجع.

كان يكز على أسنانه، ثم خرج بعيدًا وكأنه يخرج من خيبته.

بصوت واثق/ زاعق أراد أبي أن ينهي الجدال النسوي، أسكتهَم بإشارةٍ من يده:

"خلاص! هذا اتفاقنا، سرّنا كل العمر، إن كُتبَت لنا حياة بهذا الموت اليومي"

يدي على بطني، أضيع بين هاجسين مجنونين، أخاف من جنيني وأخشى عليه، فأي ارتباك هذا!

أغرقُ بصمتي الغاضب منهم، تائهةً في قلقي بمعنى أن أكبر رغما عني وعن اختياري في ظرف رمى ببشاعته على قلب الوطن وساكنيه بلا هوادة! حتى صارت حياتي/ حياتنا كالهباء، كالفراغ/ كالعدم، خَبّوني ببراعةٍ بعيدا عن الأعين، واستحالت السكينة رديفة لي، والانتظار؛ يال هذه المفردة الإرث، ساعة رملية تتسرب من سنواتي الـ 13 دون توقف، فالفكرة الأبرز هي "الخوف" والمبدأ "الحياة أو الموت"، هكذا هي الحروب وهكذا هي تبعاتها البشعة!

***

وجودي كان الوجه الكئيب الذي يأنَف الجميع - أسرتي - من النظر إليه، لأنه حقيقتهم. ومع ذلك، كان علينا أن نضع إصبعًا على بداية ما، نطلق رصاصة البدء ونمضي دون توقف، لعلها كانت

الخطوة الأكثر مرارة، فالخوف يتسع، ويضيف رعشاته المرتبكة لرعشات الشتاء، ولا يبزغ فجر قريب، ولا ضوء في قلب النفق، كنا نعيش كفريق مسرحي دُرِّب على الموت بحلول الحرب، فماذا كنا نَنْتَوي حقيقة؟

جدتي نصرة، تحسب الأيام والتواريخ والطائرات والآليات والجنود وأرغفة الخبز المتبقية وجالونات الماء المحفوظة وتنهداتي ودموع أمي وعدد مرات سهوي وأوقات الصلاة، و"فص" الثوم الذي تأخذه بديلا لدوائها، وتتحرى القمر وصيحات ديك جارنا الذي سافر وتركه في حديقتنا.. لكنها أبدا لا تكترث لأيام حملي!

وحين أسألها تلمسًا لخبرة سيدة أنجبت ستة أبناء، مات منهم اثنان، تُطرقُ، وتطلب من سالم دفع كرسيها المتحرك باتجاه الشارع أو "الجَمْعية" هربًا من امتعاض قد يجرحهم جميعا!

***

مع دميتي "الباربي" بشعرها الأشقر اللامع الذي أظل أمشطه حتى تلتصق رائحة "النايلون" في هواء الغرفة، كانت حواراتي السرية، تعلمت التمتمة بصوت هامس معها في غرفتي، ظلت

دميتي "الباربي" مكان "سحر" و"ماما" و"جدتي نصرة"، بل كانت أنثاي القريبة المُنصتة لي دون زيف/ خوف أو تلّون، فالجمادات أيضا تدرك العذاب.

كنت طفلة لبست ثياب السيدات على عجل، بل.. على حين سقطة! فكيف ألهو بالدمى الشقراء بينما يركلني ابن الغريب وينبهني غيرةً؟ كبيرةً رغما عني، غبية.. منبوذة بشكل لا أفهمه، فكيف لهم أن يحملوني مسئولية ما حدث كله، بينما غابوا/ تلاشوا جميعهم عن اللحظة الأكثر قهرًا وتعبًا، وانتبهوا في اللحظة ذاتها من مصيبتي/ مصيبتهم؟

أدُورُ في حلَقَةٍ مفرّغة من أي نظرة جديرة بالتفكير خطوات إلى الأمام.

المستقبل وما قد يحمله من تفاصيل قد تُعَرُّش عليه محض سديم وعدم، فأين هو المستقبل بين أفكار لا تُغادر قلقنا من كل شيء ضاع من بين أيدينا - الآن؟

بلدٌ تاهَ في المطامِعِ والاستهتارِ ثم الاحتلال.

وانتظار لا يكاد ينتهي، وقلقٌ على أنفسنا وعلى الآخر الذي نهتم لخشيته، وعلى نفاد الطعام من مخازنه، وعلى تسرّب الوقت دوليا

وتبدده، والخوف من أن الشجب والاستنكار يحوّلان "الكويت" لـ"قضية" بأمل فلسطين، يشار إليها بالتسعين وما قبلها، والخوف على منابع الصبر الـ بدأتْ تجفّ، وعلى اختفاء الحوار الذي كان يجمعنا بلا ارتياب.

ضعنا من أنفسنا، ضاع الوطن بما فيه.

وضِقْتُ أنا بحبسي رفقة مذياع ينقل لي عبر "تَشْويش" متغيّر التردد والخباثة، ومع الدّعك والتلميع اليومي بالماء والصابون أقضي وقتي غسيلا وتنظيفا، بينما صوت "فيروز" كترياق محبة يرطّب الروح في الصقيع المؤذي الذي شوّهني. ثابتة في مكاني كل اليوم أبقى، أشغل الحيّز نفسه من البيت، غرفتي أحيانا/ المطبخ كثيرا/ الحمام تكرارًا وغرفة الجلوس بين هذا وذاك أراقب الكون/ الكويت من نافذةٍ حَفِظْتُ تموجات الزجاج فيها، ثابتة أنا بينما الوجوه تتحرّك من حولي، يخرج أبي طويلا ليعود بكثير من دلاء الماء البلاستيكية التي يدّخرها للأيام "القاتمة"، تغيب أمي ملتحفة عباءتها لترجع بأكياس تملؤها بالمتوفّر من الطعام، تصيح جدتي نصرة:

"لمن تخزنون كل هذا؟ سنموت وسيظل الطعام"!

تلوي فمها وتهزّ كفها في الهواء.

تتمتم أمي بينما تمسح عرق تعبها:

"ليت الطعام يظل لأسبوع يا حَجّية، ما شاء الله عليك"

وأنا، عيناي تتعلقان بالشباك، وأجفل كلما لاح خيال باللون الأخضر، وتتسرب الرائحة الوجع إلى أنفي أذرف دمعا كثيرا، وأنتفض من الداخل، حتى ما عاد أحد ينتبه لي.

تطقطق جدتي نصرة بلسانها ثم تُحوقل، وتحرّك كرسيها المعدني باتجاه زاوية أكثر هدوءً في البيت الذي ضاق بالتعب.

أزجي حَنَقي/ وَقتي بترتيب عُلب البازلاء والفول في الدواليب لمرات ومرات، أنزلها لأقرأ ما دُوّن عليها، مكان صنعها وتاريخ انتهائها، أتَشَغْلَقُ فوق رف الرخام وأعيد رصّها من جديد، الأخضر في الأعلى، والبني في الأسفل. أتمتم:

"هكذا أحلى"!

ووجوه أسرتي، تعبرني/ تمرّ إلى جانبي وبقربي ولا يأبه أحدٌ منهم بلهوي الغبي، يرمقونني بنظرةٍ خائبة ويمضون، أنزل رويدا رويدا، بينما يتمنون حقيقةً سقوطي كي يتخلصوا من "إثمي" الذي تركوه يتكوّن ويثبت يوم جابهتُ مصيري وحيدة/ مشدوهة، وغيّبهم الخوف من العسكر.

سأنجبك يا ابن الغريب!

رُغمًا عنهم، وعن ضيقهم مني.

قبل الوجع، كنت أنا وسحر نتسابق في كل شيء.

من تنهي حلّ مسألة رياضية في الفصل قبل الأخرى، من تُحسن إعراب ما تحته خط أولا، ومن تحوز فرصة إلقاء قصيدتها أسرع، ولأن اسم سحر يأتي قبل سلوى في الكشف المدرسي، كنت أَقْبلُ بتقدمها بالتوقيت، غير أني أبرع في الإلقاء/ التنغيم/ الأداء وإضافة "حبّة مِسكْ" على الحُلول، لتربّت على اجتهادي معلمتنا وأفخر، وتهبط سحر.

الآن، سأنجب قبلك يا سحر!

جرّبت شيئا مختلفا قبلك.

وسأنجب طفلا صغيرا يشبهني، وأدلله بدلا من الدمى البلاستيكية التافهة هذه...!

طرقٌ شديد على الباب، ثم فُتِحَ على عَجَلٍ.

كنتُ جالسة على الأرض أتحدّث بصوت مسموع مع "باربي" التي أعارتها لي سحر ثم غادَرَتْ.

لاح طيف سالم أخي، سدّ ضياء الشمس (هل سمعني)؟!

وجهَهُ لا يحمل أي تفسير، ركلَ الدّمى بقدمه، زمّ شفتيه حتى غاب الدم عنهما، ثم غادر غرفتي بخدين محمومين بعدما نثرَ العابي الملونة بعيدا عني.

صوت طنين لوّح المكان.

صرت أستعيد كلماتي قبل أن يُطرق الباب بهدوء.

كيف مضت أيام الخوف والرهبة والصدمات؟

حنجرةُ أبي مُكعبُ ثلجٍ لا يخبرني إلا بالقليل، كلامنا وحواراتنا التي كانت.. انتهت.

تعاطينا مع بعضنا مثل مخاضٍ عسير.

أضغط على صدغي بأصابعي وأتمتم لنفسي، بأن الأذى ها هنا، في هذه النقاط تحديدًا، وبأنه ما عاد مفيدا نفضُ رأسي بشدة لتبديد غُبار ما حصل. ممتلكة ليقيني/ جنيني الذي سيكْبُرُ يوما ويحرسني من ضيمِ/ عارِ أسرتي، من مَقْتِها وجُبْنِها كل العمر ولعله كان.

كان داخلي هَشًا لدرجةٍ مفرطة، ولم يعد أي شيء يستهويني على الإطلاق مهما بلغ تشويقه أو فاقت دهشته سنوات عمري الطرية!

بل إن الأحلام نفسها كانت تَفِرُّ من ذاكرةِ الصّحْو، بحيث تذهبُ سُدىً كل المحاولات لاستعادة فرحةٍ عَبرتُ خلالها... ولو حلمًا. والليلُ أليم، الليلُ يُقرفِصُ على رأسي، وينبش وعاء ذاكرتي البصرية المتكونة/ المنتهكة حديثا، ويعبث بأمنياتي المفككة، فأخفي كوابيسي تحت الوسادة.

أفردُ السجادة ولا أُصلي.

لكنني كنت أُجزل في الدعاء العميق/ البليغ في لغة أظنها تتلبسني عبر روح مؤمن/ ناسكٍ واسع الصبر، وأعجب من ذاتي.. أصيح بـ الله:

"لماذا انشطرت المصيبة العظمى مُخلّفة وراءها كارثة تمتد وإلى جانبها مُصيبة فُصّلت على مقاسي أنا"؟؟

وسؤالي المتشظي لاستفهامين يضيع هو الآخر، فالجنود بلونهم الأخضر الموشى بالعَرَقْ يخدشون سكون الليل وينبشون هدأته، يضيع الظل نهارًا وننسى تلمس الفيئ، ولا نتعرّف بمواقيتنا الـ كُنا نضربها لبعضنا للرضا والصلاة والذّكر والحنين والكلام وربما.. لمرحٍ شحّ الآن بامتياز.

أيامُنا معطوبة بالفجائع.

مشنوقةٌ بالترقب الـ يُميتُ نهايات أعصابنا.

مشحونةً بالدمّ الذي ينسحب من العروق.. متشابهة كالمعاصي حين تَختلطْ!

تَشارَكْنا بالدمع حتى بتنا نعرف وجوه بعضنا جيدا، والأفكار التي تتهيّج وتتصادم في رأسي كلما قلّبت دميتي الشقراء، بنية المرح، لتتسلق محيط رأسي مثل فئران حُرّة لا سُلطان عليها.

فماذا كنتُ أفعلُ في الـ 1990؟

كنت أرقُب كل ما حولي، ما حدث والجاري وما سيكون، أتابع حوارات السّرّ بين أخي سالم وأبي عادل، عن نزوح المواطنين، عن تقارير الإذاعات الأجنبية، عن عمليات المقاومة التي تُرهب المُحتل وتدفعه لمزيد من الأذى، عن فَتْح مخازن طعام في "الصليبية" وتوزيع حصصها على "الصامدين"، عن صديقه الفلسطيني الذي يحثه على الالتحاق بالمدرسة معه ودهشته العالية واستياء أبي، وعن تلك السيدة التي أطعمتهم حلواها المسمومة على نقاط "السّيطرة" التي تشكل هاجسا عجائبيا من الأسئلة التي قد تفضي لاعتقالٍ أو لقتل سهلين.

كنت أراقب أمي نجيبة، التي تُعَوِّد نفسها/ تُذكّرها بحملها المفترض بعد 13 عاما عن آخر مضغة احتضنتها في أحشائها، أنا!

أنا التي كبرتُ قبل الأوان. وصرت أنتظر قمرًا يمرّ بكل تحولاته حتى تحين اللحظة السّرْ. فالآن ليس سوى ركلات صغيرة لكائن يتحوّل من هلام لكتلة بشرية بحجم قبضتي، وغثيان لا يتوقف وثقل بليد لا أتجرأ على الشكوى منه، فاكتفي باستنشاق منقوع الزنجبيل ولا أشربه، تُطيل جدتي نصرة التمعّن في الكأس أمامي، أفرغهُ باردا في أصيص الزرع إلى جانبي خفية، تتمنى شيئا، لا يتحقق.

صرتُ في انعزالي في غرفتي أرَبّتْ على جانب معيّن من بطني الذي كَبُر وتكوّر وتشكّلت ملامحه بحملٍ مستقرٍ معافى، مقررة بأن تلك المنطقة تحديدًا يدفن بها رأسه الصغير فأمسده وأدعوه لينصت لي جيدا ليكون فاتنا وذكيا، مطيعا و..... حُرًا!

هبطَ قلبي.

أترانا سنتحرر من هذا الأسود الجاثم فوق أيامنا؟

وأين سأدلك يا طفلي النامي حديثا نتاجا من خراب مس الروح والجسد... والوطن؟

نحن نُنهبُ كل يوم والكويت تجرّدت مستشفياتها من كل ما فيها، انتقل التطوّر لمكان آخر من الأرض! صارت بلادي مدينةَ أشباح نخاف التلاقي معها، لذا أُجْبرتُ على ملازمة البيت كي لا يُفتضحَ وجعي/ سري، وأمي ترتدي الفضفاض أسفل عباءتها وتثقل

خطواتها كي تُقنع الجارات/ أهل البلد بحَمْلها، والتماعة عين جدتي نصرة الماكرة وجملتها التي ترميها كالسّهم/ السّم تُصيب روحي أنا بالأذى أولا وتاليا:

"إتْقِصّين(*) على منو..."!؟ ثم تُقَهْقِه مثل عجوز مجنونة بـخباثتها.

وأنا أضيف على نهاية سنواتي الـ 13 سنواتٍ جديدة، بثقل وزني، وانتفاخ أقدامي وانسحاب روحي عميقا واحتياجي لـ سَحَرْ لأغفو على قلبها، أبكي فهمي الناقص للأمومة غير المرغوب بها الآن!

أرفعُ رأسي لجدتي نصرة، أراها تَعُدّ على أصابعها بتركيز شديد، أسألها، تخبرني بأن موعد الجنون والفضيحة قد اقتربا!

أشهق بداخلي.

وأتذكر سالم أخي، البعيد..

متقوقعا/ منكمشا/ مشغولا، بالكويت أكثر من هذا البيت، منهمكا جدا/ جيدا، كما يرغب أن يكون!

يمرّ بالمكان ولا يراني.

(*) "إتقصّين": تكذبين، باللهجة الكويتية.

يدخلُ ولا ينظر لأمي.

يجلسُ معنا ولا يختلطُ بنا.

يتناولُ طعامَهُ ورأسهُ في مكان آخر، منشغلًا بكل شيء، عَدانا.

سالم، كان يخطط لآتٍ لا أتلمسه، وأرتعب لمجرد النظر لعينيه الـ تُخبّئان مستقبلًا مغبشًا يشبهني تماما!

سالم فقد بهجته.

غابت نكاته المجنونة التي يُحسن نقلها، فأدمَع بالضحك، ليصيحَ كي أتوقف عن "الهَبَل" فيضمني مثل أخ كبير يخشى على أخته أن تغص بضحكاتها.

سالم منذ "وَقَعَتْ الواقِعَة" لم يُدرْ حوارًا معي.

آه..

ماذا لو وَزَّعتْ غضبي على حمقى العالم!

هل سيحترق الكون و... تقوم "قيامته"؟

سحر هربت رفقة أسرتها، أهلها الذين خافوا عليها/ على أنوثتها من الانتهاك.. فيما أحب أبي وطنه/ وطننا، والتصقنا بترابه، لكنهم خذلوني بصمتهم حين داس الغريب جرحي.

لكنهم عاتبونـي لاحقا!

ماذا سوى أن أرفع رأسي للسماء، للـه "جل جلاله، ماذا أرى؟ سماء وطني صامته، والصمتُ حالةٌ تعلمت الدخول فيها حين الضيق كما انتبه لجدتي نصرة، إذ تقول بأن النظر للسماء يعني رؤية اللـه، وارتجاء لقائه وربما التّمكن من إخْبارِه بالأسرار كلها، يقفز وجه معلمتي الشمعية (ألا يعرف اللـه السرّ وأَخْفَى)؟! - تُكمل جدتي - ثم الاعتراف بكل الجمال والقبحِ في صُدورنا (أليس هو من يعلم ما في الصدور)؟

مطمئنة أنا، إلى أن اللـه يعرفُكِ تماما يا نصرة، لا أدري كيف أنجبتِ أبي وأنتِ من طينةٍ مسقيةٍ بماء التّرصّد والضغينة؟

طَفَتْ أسئلتي باردة.

وجهتُها لجدتي، لكنها ظلت صامته، ثم سَعَلَتْ وتَحشْرَجَتْ طويلا بكلام غير مفهوم، وحين أَعَدْتُ عليها (هل يعرفنا اللـه تماما ويكشفُ كذباتنا وما نُبطن)؟؟ كانت قد شَخَرَتْ ونامت بفمٍ نصف مفتوح.

حَوُّلت نظري صوبَ اللـه/ السماءَ من جديد، سألتُه:

"أحتاج لإجابة حقيقية... الآن"!

هل كانت أسئلتي فضفاضة وكبيرة إلى هذا الحد؟

أم أن مُصيبتي أكبر من أن يُجيبني اللـه عليها؟

هذه العائلة البعيدة عني بإجحاف، القريبة مني حدّ الضيق، تثير الجنون، على قلق ينتظرون حريّتنا التي طالتَ أيام تحققها، ولاشيء سُوى الوعود والمواعيد الدولية، والأخبار تهرفُ بأنصافِ الحقائق والتَّكهنات، بينما تعبثُ الشائعات بما تبقى من أعْصابنا، كمثل ترياق يُسممّ أجواءَ البلد.

وأنا.. أتلمّس بطني.

أتابع التكوّر/ التكوّن، وأتخيل شكلَ صغيري في الداخل المقدّس، واستذكر صورًا في حصص "التّدبير المنزلي"، وما جاء في باب تربية الطفل، والولادة.

والخوف والرهبة أؤجلهما بالتلهي بفتح ألبومات الصور العائلية القديمة، أنظر لطفولتي منذ يومها الثاني، وأتخيل شكل القادم، وأبتسم خفية.

أمي نجيبة، تتغاضى عن خوفي، تقرؤه في عينيّ ثم تهرب.

من غيرك لأسألهُ يا أمي؟ لأيّ الأشياء خُلِقَتْ الأمهات إذن؟

فكُّرت أن أزور المركز الصحي في منطقتنا لأسأل الطبيبة هناك، لكن.. من يعرف بأمر حملي!

المركز الصحي تابع للمنطقة.. مُقيدة في مَلَفّي، عزباء.

المركز الصحي أتلفه الاحتلال والنَّهب.

المركز الصحي فكرة سيئة للغاية!

طردتُها. سأعرف بألم الولادة متى ما حانت.

لكن، ألن يعرف الجميع بأمري حين أحتاج للمساعدة يوم ولادتي؟ فبماذا ستردّ أسرتي العظيمة التي ادَّعَتْ حَمْلَ أمي؟

تذكرت كلمة أبي:

"شعوب نائِمَة صحيح" وأرد عليه: "نامِية بابا"!

يمسح على رأسي المدفون في كتابي قبل سنتين، يخبرني:

"ستكتشفين ذلك يومًا ما"

صحيح يا أبي، نحن شعوب تخطط لكل شيء، إلا فضائحها.

وأنْسَكِبُ في لُجة الأسئلة ولا أقوى على طرَح أي منها عليهم.

أهرب للغناء، بينما أمسّد على بطني، وجدتني أغني لطفلي:

"بشراع الهوا نعلّي، ونسمّر ببحر الشوق، وإشْحِلوَهْ الزّمن خِلّي لصعد بالفرح لي فوق...

لا بَنْدَر يوقّفنا ولا مِينا.. مثل طيرين، نتريَّكـ غناوينا..."

فهل كان الشُّطر المُستكمل من الأغنية بصوت أمي حقا؟؟

استدرت نحوها بحركة بطيئة نالَتْ من الزمن أطول مما تستحق، كنت أُداري رهبتي ليس إلا، رهبتي من أنها حقا من استكملت غنائي، استدرتُ.. كما دارت دمعتها الحارة المنهمرة على خديها اقتطعتْ/ ابتلعتْ آخر كلمتين من الأغنية.. دموعها انهيار التعب المخبأ بفداحة داخلها.

بَكَتْ طويلا بوجهٍ مختبئٍ خلفَ الموقد وهي تطبخ.. نشَجَتْ كثيرا.

وكنت أنا بصمتٍ مرتبك، هل طعنتُها بغنائي؟

كيف تلقّتْ دُبوسَ الدَّندنَة؟

هل أعْطَبَها الاحتلال أم الاختلال الذي صِرنا إليه جميعا؟

هل حَنّتْ للأشياءِ الجميلة التي سَقطتْ من بين أيادينا مثل حفنة تراب كبيرة طيّرتها الريح؟

أم أن أغنية خالد الشيخ سحبَتْ شريط الذكريات نحو الخلف، نحو الأيام الجميلة التي دمّرتنا، حين كنا نذرعُ شارع الخليج أُنْسًا وتجوالًا وأمانًا نسيناه مُذْ هبّتْ سموم أغسطس 90؟

ترى ما الذي أبكاك يا أمّ سالم؟ لِمَ لستُ قادرةٍ أن أُشاركك الدموعَ والانهيار؟

بَقيَتْ تُعمل يديها في القِدْر الكبير أمامها، وتَشهقُ بالدمعِ طويلا،

وأنا.. حين طالتْ مدة صمتي، اكتشفت بأنني كنت أبحث بين غابة الأسماء الكثيرة في الدنيا عن اسمٍ لطفلي!!

هل كنت تافهة لهذا الحدّ أم مكسورةً لدرجةِ الهرب؟ عاجلني صوتها المتهدّج، شرَخَ العصفَ المحتشد في رأسي، قالت جملتها دُفقَةً واحدة عبر قَفاها ولم تَستدِرْ نحوي:

"سلوى، اليوم بعد الغداء، لازم نقعد ونتكلّم.. كلّنا"!

أدرتُ مؤشر الراديو البني في المطبخ على صوت أمريكا، خشخشات التشويش الخبيثة تُربك الاستماع، أجبتها بهدوء:

"حاضر"

بماذا يُمكن للأم الطفلة إجبارًا/ تهاونًا أن ترد؟

كانت الـ حاضر قرص التهدئة المتاح لاستلال السّكون الذي أُحبه كي أظل مُحلقة/ منغمسة في أحلامي الوردية نحو طفل صغير يخصني وألهو به، سيأتي قريبا - طبقا للعدّ على أصابع جدتي لصرة - وسأستبدل به "الباربي" ورائحتها البلاستيكية!

تسرَّبتْ أحلامي للمكان المعتم من الروح الطرية التي أضافتها للتو إصرارًا أمي لأن نجلس "كلنا" سويا ونتكلّم.

بماذا سنتحدث بعدما انكسر بلّور الأمان؟ بعد أن تغبشتْ الرؤى، وتداخلـــت الخِطَطْ، وصـــار المجهول هو يومنـــا المعيش والآتي المنتظر؟

صوت علا فجأة من بين الإذاعات التي أمرّ عليها، شتّت أفكاري، انتبهت للصوت المألوف، إذ تَصادَقْنا ومذيعو النشرات المتفرقة، صوت العرب، صوت أمريكا، الكويت الـ تَبُثّهـــا السعودية، وصوت جدتي نصرة الذي لايكل ولايهدأ ولا تنتهي "بطاريته" في التعليق على كل ما يدور في زوايا البيت!

الصوت المألوف يعيد كلاما حول قرب انتهاء المهلة العسكرية.. وأتندّر:

"يُمهل ولا يُهمل"!

جدتـــي نصرة تســـأل المذيعة: "وَينَهْ بـــوش(*).... طَوّلْها وهي قِصيرة"!

رائحة الغداء تستفزني لجوع حقيقي.

مع ذلك كنتُ منشغلةٍ بأول لقاء جاذْ سأكون فيه بعد الغداء، مع أسرتي.

(*) "وينة": أين هو؟ باللهجة الكويتية.

الشتاء يُقرفِصُ أطرافي التي تورَّمتْ من الحمل.

كنت أخبئ انتفاخاتها وراء طبقات من الملابس الثقيلة التي ضاقت عليّ حقا.

أنا البنت النحيلة التي سَمنتْ واستدارت وانتفخت، ولم ينتبه إليها أحد.

كنتُ متواريةً في البيت الذي حَفِظَ ملامحي المتغيرة منذ الكَسْرِ الأول، ثقُلتْ خُطواتي وقلبي بالرفضِ المدفونِ عميقا في قلوب أهلي.

كنا قد تحدّثنا، اتفقنا، ولا أدري لم هذه البقعة الهلامية تكبر كلما تَبسّط أبي في الحديث معي، ظلّ يشرح لنصفِ ساعةٍ ماذا سيكون إن جاءني المخاض ليلا أو نهارًا، لأنه وجد "داية" تسكن "تيماء"، سيدة متمرسة باختصاصها النسوي، كفّ بصرُها قليلا، ولن تعرفنا كما يزعم ويظن!

لماذا غاب عن أبي ما أخبرتنا به معلمتنا يومًا ما، بأن للكفيف حساسية نابهة للأشياء/ الأشخاص وللصوت ومصدره؟

كم من المرات ضحكتُ من أنفي، لما آلت إليه وضعيتي.

سيدةٌ كف بصرها ستتولى مساعدتي حين الولادة؟

كنت أستمع وأهز رأسي بينما أتلمّظ بطعم الشاي الممزوج بالسكّر، وغضبُ الدنيا الـ يَسْكنني يتوهّج مع نبرة التشفّي الخبيثة الـ تُطلقها جدتي نصرة تعليقا كالخنجر في خاصرة أمي الثكلى بي وبمصيبتي/ مصيبتها، وفي رأسي مَثَلٌ يسري كاللحن المشروخ:

"ما أعزّ من الوَلَد إلا وِلْد الوَلَدْ"

أُمسك باستكانة الشاي وأغادرهم جميعا.

بينما أتخيل أننا ننتظر سيدة كفيفة لتأتي من على بُعدِ ساعة في الأحوال العادية، فكم ستطول في شوارع تملؤها "نقاط السيطرات" كي تساعدني على الولادة؟!

صوت أبي يذكّرني من ورائي:

"سلوى يبا، إذا حَسّيتي بالعَوار(*) قُوليلنا مْبَجّر(**) عَشانْ يَمْدينا(***) نتّصل بأمّ نهار"

ثم يتناهى إلى سمعي سؤاله لأمي:

"هي كم لها الحين"؟؟

(*) العَوار: الألم.

(**) مْبَجّرْ: مبكرا.

(***) يَمْدينا: يتسنى لنا التحرّك سر بها.

الجواب كان حاضرا بفم جدتي نصره:

"دْخَلَتْ السادس، لا تْحاتي(*)... رَيْضَة(**)"!

تَسِفّ ما تبقى في استكانتها من شاي، وتُعلّق:

"ولا تنسى، البِكِرْ، تتأخر ولادتها... إيه، اللـه لا يْعَاجِبْنا(***)"!

وللأسماء سطوتها.

فأمّ نهار السيدة الدَّاية الـ كَفّ بَصرُها "قليلا" والتي كنتُ سألتقيها مُلامسةً ومُساعدةً وخياطا، رحمةً وتعاونًا، كانت قد نثرتْ من كُنيتها الأمل.

ولعل الاختناق الذي طال، وعَتّم ساعاتنا ولوّن الوطنَ بالسواد، وشَوّه شوارعه بالإتلاف والحرق بحيث لم نعد نتعرف عليه جيدا، لا بِبيوتِه ولا مبانيه، قد زال.

كان حديثنا عن أمّ نهار، مفتاح السّحر الذي أطلقَ شَرارة البدء لحربٍ منتظرة أعلنتها القوات المتحالفة برفضِ الليلِ والظلمِ، قوات عسكرية عالمية منادية بالفجر القادم، فهل سيطل النهار فعلا؟

(*) تْحاتي: تقلق.

(**) ريضة: مبكرة.

(***) يعاجبنا: يعاقبنا.

شتاء 1991

ظلامٌ كثيف وأصوات تهز الأرواح المعلّقة بخيط فضي لا يُرى، يا اللـه، هذا المكان مغمور بالخشية فمتى ينتهي الصراع/ الصداع/ الصراخ، وهذا القصف الهادِر بالاستفهامات، والخوف والجنون الكوني؟

متى تستقر وتسكن هذه الإحداثيات المرتبكة/ المغيّبة/ المُسَرّبة للرهبة لنا من كل اتجاه؟

فهل ستُهدم هذه الأسقف علينا وتنهار لتحطم رؤوسنا الشاخصة إليك في دقائق ضائعة من قدَريتك؟

هل ستحمينا يا اللـه؟

كلُّ الأكف/ العيون نحوك.

فأنت الملاذ ولا أحد، هل ترى كيف استحال هذا المخبأ البدائي بؤرة رَجاء؟

لماذا كنتُ أذرف دمعًا أكثر منهم؟

هل أخشى الموت كي لا ينبشوا بين الجثث ليجدوا مراهقة أكملت الـ 13 من عمرها ماتت وجنينها لم يولد بعد؟

لا شيء يُداري الفضيحة ولا حتى الموت.

شهرٌ آخر يمضي، وأحلامي تتراوح ما بين الوجه المتخيل لـ أم نهار، وقاذفات الـ بي 52!

ربيع 1991

بقيت لصْقَ النافذة الكبيرة ذاك اليوم منذ الفجر.

نافذتنا الكبيرة المغبش نقاءها بلاصقات متعاكسة تأخذ شكل "إكس" بالإنكليزية، أرقُبُ فَرَحَ أبناءِ الحَي.

بكاءٌ وأغنيات، تَعَفُّرُ ملامحهم المُتعبة ظلمًا و"سُخاما"، اسْوَدّتْ معه أطرافَ الملابسِ كما الكويت أرضًا وسماءً، كنتُ أُنصِتُ جيدا لهديرِ الطائرات التي تحوم فوق رؤوسنا، للتصفيقِ المبتهجِ بالخلاصْ..

للعيون الـ تتفقد آخر الخسائر واللّعنات، كنتُ وحيدة حتى في الفرح الغامر الذي انتظرته طويلا، اكتفيت بأن أكون مختبئة/ مخبأة بشكلٍ جيدٍ من وراءِ الزجاج/ كي لا يلحظني أحد/ كي لا ألحظ نفسي حتى.

مُستمتعةً بالمزيج المقدس الذي اجتمع فيه الرصاص بالدعوات، القذائف بالصلوات، الرهبة بالآمال.. وكلها بالنشيد الوطني، فوُلدَت الحرية فجرًا/ نهارًا.

فمتى يا اللـه يحين موعد خلاصي المرتقب؟

كانت المرة الأولى التي أرى فيها جدتي نصرة تبكي جيدا!

تذرفُ دمعا حارًا قَلَبَ لوْن وجنتيها للأحمر.

لم أقتربْ منها، كنتُ أعيش تحولاتي العجائبية ولا أكترث إلا بِخِططي المرتقبة التي أُعيدُ رسمَها كلّ مرة بشكل جديد، مكان جديد، حوار معدّل وأشخاص لا أعرف منهم إلا القليل، كما تجود به أحلام يقظتي الشهية، وما تحنّ إليه مُراهقتي الناضجة عنوةً، مؤخرا.

فلماذا إذن كلما أغمضتُ عينّي في أول النوم يظهر لي وجه الجندي الذي كَسَر بلّورتي؟

ولماذا كلما رأيت وجهَهُ في سواد إغماضتي شعرت بحنينٍ غريب؟!

ثم بالحزن المضاعف بعد الحنين، ليتلقفني طوفان بكاء ساخن يُبلل مخدتي، حتى أنام.

هل يُعقل أن يكون الحُزن هو الطّاقة الـ تُسيّرني؟

كنت أتكوّن من جديد، بين يدي جدتي نَصرة وجدتني أفكّ شَعري لتُجَدِّله لي، وهي تنوح بكلام منغّم لا أفهمه.

كانت هذه السيدة مُسنةً جدا، ويبدو بأنها عرفت بأن الزمن مُراوغ كبير، لذا، يُشعرها/ يَغمرها بـ الرضى أن تُمارس الحياةَ على مهل، فالبلد تحررّت/ شَقّتْ سَقفَ السّواد، لكننا ما نزال نصحو على أيامٍ مليئةٍ بالتعب الجديد، متورّمين بالأذى أصلا!

نقضي شهرا جديدا بالمزِيد من الانتظار/ الإصلاح/ النهوض، بالاعتذار من أرواحنا التي أُنهكت/ انتُهكت بالليالي المُظلمة الغابَتْ عنها الكهرباء وجَفّت دورتها بلا ماء، ليالٍ من اللاجدوى، حتى نُنْهيها مُبكرين علّها تنطوي بالنوم مثل أطفال في ملجأ.

أحيانا ومن شدة الفراغ والفزع، نسْترقُ النظر-لمراكز التخزين في الذاكرة، نَستلُّ الفاسد منها ونظل نتشَمّم كريه الرائحة، هكذا نعشقُ تقليبَ الحزن بين أبصارنا، نعيدُ استذكار ما مَررنا به/ ما مَرَّر حلوقنا سبعًا، والبيت شبهُ خالٍ، فالكل منشغل بذاته، وسالم أخي الذي كنتُ أتقاسم معه الطفولة والضحك والخطط والدمع والانشغال، يغيبُ كثيرا/ طويلا، ولا أنتبه لوجودِه إلا من خلال نقصْ الماء في طست الاغتسال في حمامنا، إذ يصحو مبكرا جدا، ويخرج.

يقول أبي:

"يساعد الشباب في الدّيْرَة بعد الخراب، إشْتَبونْ فيه"؟

لماذا يغيبُ سالم عن بيته/ بيتنا، لماذا لم يحتضني حين غادَرَنا الحزنُ الحارّ، ولم يُقبلّني كما كلّ مرةٍ يَفرحُ بها قبل "الواقِعة"؟!

لماذا لا يُساعدني أنا في فهمِ الآتي من مَشقّة؟

لَمَ لَمْ يُفكّر أن يَسألني منذ شُهور طويلة "كيف أنا"؟

لِمَ ينفر مني وليس لي يدٌ فيما انكسَر؟!

أُجهشُ فقدَهُ، بكاءً يوميا.

مُرة هذه الحياة حين يغادرها - هربًا متعمَّدا - أخٌ وحيد.

تضيعُ الحوارات وتنطفئ بيننا جميعا، صرنا نكتفي بـ "صباح الخير" و"تصبحون على خير" و"الغدا جاهز" و"أنا طالع" وهذا كل المعجم اليومي!

صادقتُ "ماجدة الرومي" و"فيروز"، ودوّنت آلامي، ولا أدري لمن كنتُ أكتبُ ضعفي حقيقة؟

نهاراتي الثقيلة كلها أحلام يقظة تُقْطَعُ في العادة بصوتِ أحد ما في البيت.

مَرِضَتْ جدتي نصرة حين بدأت البلد تتعافى.

ومرضها جعلنا نُعيد وصل حبال الكلام بيننا قليلًا، تَحلّقنا حولها وهي التي لا تُحب أن يخدمها أحد، لكن أبهجها التقاؤنا المؤقّتْ من جديد، كانت تنسجُ من ذاكرتها الهَرِمَة قصصا تَحكيها بتعب كي تُبقينا متلاصقين قربها، تُمسك بكفٍ جديدة كل مَرة، وتدعُ عيونَنا تلتقي/ تتواصل تُسرّب الفَقدَ الواسع الذي طالنا واستمرأناه، اجتمعنا مرة أخرى لأجلها خوفا عليها، والصمتُ والإنْصات للحكايات التي لم تُروَ من قبل، فأين كانت تخبئ هذا الإرث الصاخب بالأسرار؟ وأي القلوب صلابة تحتمله دون الإفصاح عنها؟

كانت تحكي وتضحك، تسعل وتبكي، تستذكر وتقلّب عينيها في مساحات الغرفة، ثم تنتبه لانتظارنا.

لكني كنت الأقرب لها، الأقرب مكانا إذ أشاركها غرفتها ليلا، أنطوي على مخدتي وأبقي عيوني عليها.

هذه الجدة، التي تُشبهُ قُدرة اللـه إلا قليلا، إذ كنتُ أراقب الحُمّى في عينيها اللتين تلتهبان كل مساء وكأن فيهما عَزفًا متوحشًا/ مُؤذيا لا نعرف نحن مَرامه ومَرْماهُ!

سألتها بغتة:

"يُمّة؟ تتخيلين ولدي بيطلع شبه منو؟"

ولا أدري حتى الآن لماذا بكت العجوز لنصف ساعة متواصلة!

لكني أتذكر بأنني انسحبت من الغرفة بهدوء المنتصر، أحمل ثقل بطني في آخر نضوجه غير مهتمة بها.

أرواحنا لم تلتقِ لسبب ما منذ تفتحي الأول.

منذ قالت بصوتٍ ظَنّته هي خافتا:

"صايرة تشبه أمها، أَبَدْ كلها نجيبة، جِبَخْ وَيْهْ(*)"!

ولَوَت فمها بقرفٍ واشمئزاز.

في ذلك النهار البارد كنا نفترشُ الحديقة المزهرة في ربيع 89، يوم كنت على أعتاب تفتح الفتاة الصغيرة الـ تلتقط الثناء والهمس من حولها، والتي تظن بأن جدتها هي أمها الأكثر خبرة والأوسع قلبا!

شَدَهَني مِقدار الكُرهْ في عينيها تلك اللحظة وهي تتفحص أمي ثم أنا خفية، وما عدتُ قادرةً على تقبّلها كجدةٍ حقيقية، بل صارت عجوز غريبة ملغومة/ محقونة بالأسوَدْ.

(*) جِبَخْ وَيْهْ: عبارة انتقاص وازدراء باللهجة الكويتية.

في ذلك الليل الطويل، تَلقَّف أبي حيرتي حينما تركتُ الغرفة والبكاء العجائبي لجدتي نصرة، وقرأ شحوبا في وجهي فسألني:

"تعبانة يُبه"؟

أجبته عابرة لسنواتي:

"كلنا تَعبانين يا يُبه"!

ليلة جديدة من ربيع 1991

وآذار يُطل خفيفًا، ليلة جديدة مفعمة بالغرابة، ماتَتْ جدّتي بعد بكاء تطهيري لم أفهم سببه.

هكذا ببساطةٍ أن يُغادر أحدهم المنزل دون أن تَراه.

انتبهتُ متأخرةَ إلى أنها لم تكن تشْخر ليلًا كما دائمًا، كما أنها لم تستيقظ للصلاةِ فجرًا ولم تُؤرِق سكون أول الصبح، تَقلُّبت بثقلِ بطني ناحِيتها.. ناديتُها، ولم تتحرك، فَزِعْتُ من فكرةِ النوم بقرب "جِثة" باردة.

ناديتُ أبي بصوتٍ مبحوح بالصدمة، وخفيض خشية أن تصحو من رقدتها، فهذه مَرةٌ أولى أجاور فيها ميتا. مع ذلك كانت الشمس واضحة جدا ذاك النهار.

كنتُ دائما أشعر أنها تنتظرُ الموتَ مثل طريق سهل نحو الجنة التي ستخلد فيها وتنعم بلذائذها - هكذا كانت تدعو في صلاتها - ستَمْرَحُ الآن بلحمِ الطير مما تشتهي - وما أكثر ما كانت تَشتهي - والعسل والخمرَ والرمان والتين!

تلك سيدة طمحَت كثيرا بتلك الميتة الناعمة، لتَسْتلّها من جانبي ليلا نحو "الفِردوس الأعلى" الذي حكت لي عنه طويلا قبلا، وحين سألتها: "المكان حلو؟"، فتحت عينيها على اتساعهما استغرابا، وردّها كان حاضرا:

"طبعا حُلُوْ، إلا إيَّنِنْ(*) بَعَدْ"!

ليتك يا جدة الحكايات - التي تغطس بين التين والرمان وتدبّق يديها بأنهار العسل الآن - ليتك تزوريني مرة واحدة أخيرة في الحلم لتخبريني هل هناك جنة فعلا؟!

وبلادي تستعيدُ بطيئًا الجنّة التي كانَتهْا.

لكن الليل والنهار اتفقا على الاندماج، فاحتراق مَوْردُ النّعيم والاشتعال المتواصل للخير الأسود لم يترك لنا أية فرصة للتملّي بالسماء ولا بالاستمتاع بالنهارات الــ مُشرقة، كان فقط نهارا مشرقا

(*) إيَّنِنْ: (يُجَنُّن) يثير الجنون إثر جماله.

يوم غادرتنا الجدة، يوما استثنائيا تحالَفَتْ فيه الطبيعة مع النيران، فغيَّرتْ الريح اتجاهها، ورأينا النور!

بعد منتصف آذار، هَلّ الشهر الكريم، وحين دخل كان حضوره ثقيلًا جدًا، فقد كنت في شهري السابع أتحيّن إتمامه، وبالشموع والظلام كنّا نحياهْ، إذ لم نرَ هلالًا ولم نحيي "قرقيعانا"(*) ولم نُفطر على مسلسل تليفزيوني لأننا دون كهرباء وبماء شَحيح بارد، كانت "الدّيرة" دون "شعب"، وكنا بأعداد ضئيلة متعاضدين بمحبتنا (لهذه الأرض التي تُدعى الكويت)، نُخطط للآتي برتابة الساعات الماضية في الحزن.

لَبِسَ أبي حُزنه الكثيف على والدته التي ماتت في لحظة هي اختارتها. وصمت طويلا.

لكنه وعلى غير عادته نادانا بعد أن هَبط الليل - فعلا - بعد الإفطار الذي لا أتذكره، وبأمر واحد من كلمتين متجاورتين جدا قال:

"سنسافر لـ مصر"

صمتٌ طويلٌ كأيام الكويت بعد الحرية. ثم سؤال من ثلاثة حروف مستندة على علامة استفهام طويلة:

(*) **القرقيعان**: احتفال شعبي للصغار في منتصف رمضان توزّع فيه الحلوى.

"مـصـر"؟

هزّ رأسه بعدها مؤكدا بـ نعم.

يدي على بطني الذي كَبر جيدا، عيناي تتحديان الظلام عبر وَهَجِ الشمعة اللولبية البيضاء، تنظران نحو أبي سألته:

"لِيْشْ مصر"؟!

أجاب بإسهاب وشبه خَنق كمن كان مستعدًا جدا لسؤال كهذا:

"ولادتك قرَّبت، البلد فوضى تترتب ببطء شديد، وليس كمصر فيما نود أن نفعله، ستلدين بالسلامة هناك، - تعثرت كلمة بالسلامة للحظات قبل أن تخرج منه - ونسجل الطفل باسمي ونعود سريعا و.... ينتهي كل شيء"!

أقسم بأنني رأيتُ علامة (!) تقف على رأس أبي حين نطق "وينتهي كل شيء"، رأيتها واضحة/ ساخرة قبل أن تختفي تاركة وهجها في المكان.

كان فاصلُ السكوت قد امتد طويلًا، فاصل من الفراغ الكبير، ثم سكوت آخر يلحقه، وسكوت آخر يتفق معه.. حتى انتبهت إلى أنني كنت وحيدة في الغرفة.

سؤال واحد وقلبان في جسد؛ هل حقًا بعدها سينتهي كل شيء؟

يا أبي، يا أيها الوالد الباحث أبدًا عن الخلاص والراحة لأسرتك، صدّقني، بأن كل شيء سيبدأ حين نعود من مصر.

حزَمْنا حقائبنا بعد يومين، بدأ الطيران في الساحة الخارجية لمطار الكويت أو لما تبقّى منه، كان الخروج الأول لي منذ وُسِمتْ جبْهتي بالفعل القَميئ.

كنت في السيارة بردائي الفضفاض وعباءة تُخفي استدارتي وانتفاخي أُعلّق عينيّ في السماء المحتقنة بالرمادي الخانق، رائحة الاحتراق والغاز والكربون متواصلة، وكنت بلا وعي أهرب من النظر للتفاصيل الموحشة للكويت الممزقة مثل فريسة انتهى منها جَمعُ ضباع جائعة، الكويت محطّمة/ مُنكسرة/ خالية/ باردة/ متسخة... فقدَتْ روحها الأولى وشمسها الحامية ورائحتها التي لا يعرفها إلا من امتزج بها.

ربيع 1991

القاهرة/ مصر

وفي "أمّ الدّنْيا" التي كنتُ أتصفحها شغفًا وأخبارًا على "الكواكِب" و"المُصَوّر" و"صباح الخير" بعد أن تنتهي منها أمي، كانت لحظة الاكتشاف التي لا تحدث عادة بحضور الآخرين قد حدثت بالفعل!

ففي أرض اللـه البعيدة والتي وارَتْ فضيحتي وَرتّبت مواعيدي الجديدة مع القدر كنت أنتظر.

أُنصتُ جيدًا للصمت الذي يتلصص علينا، أبي وأمي وأنا... وجنين أنتظره وأخشاه!

كم كنت أخشى الموت وحيدة بين يدي غرباء يعرفون كذبتنا الكبيرة التي حملناها معنا عبر المطارات سرًا، ولم تكشفها أنوف الأمن المنتشرة هنا وهناك، هؤلاء الغرباء كم تمنيت أن أخبرهم

بأن ما ذكره أبي لهم ليس سوى هراء فلا تغتَدّوا بما سَرَدَ لكم!

كنتُ أموتُ وأحيا.

وقد كان هذا قتلي الثاني، وأيضًا وحيدة، يتوارَوْن جُبْنًا أم حُبا أم خجلًا أم تعبًا أم ترقبًا هذه المرة؟

أموت وأحيا، أغيب وأعود، أميل للجهتين ولاشيء سوى العَرَقْ ينز من بين أصابعي وعلى وجهي، وأيادٍ تُمسكُ بي، صوتٌ وحيدٌ يصيح من بعيد ولا أتذكره، ولا أقوى على الدفع!

تختلط دموعي العاجزة بعرقي المتزايد، وخَفَقان قلبي الذي أرهقه الاستعجال بكل شيء.

الوجوه تغيم ثم الأصـــوات تغيب، والألـــم.. يتباعد، والأيادي الممسكة بي، تَهدأ.

كنت أنغمس نوما بعيدا لا يُوتره إلا ضَربات/ ركلات أسفل ظهري، صارت تختفي بُعَيْدَ غَفوة.

كجذعِ شجرةٍ مُلْقاة على الشاطئ، صَحوت.

يابِسَة/ مُتيبسّة وعَطشى!

وصوتُ الشاطئ الـ يُمَشّط أذني بصفيره المتواتر، أسحبُ شهيقا

أُغالب الاختناق نوما، أُجاهد بفتح ربع عين، ولا أقوى على ذلك.

يا إلهي، من أَحْرَقَ أسْفلَ بَطني وتركني أتَلظىّ؟!

يَدُ أمي تُبعد كَفي عن مَوضع الحريق/ الألم أسفلي، توشوشني من بين صوت الموج الهادر:

"عطشانة؟ تبين مُسَكّنْ"؟

صحت بِوَهْنٍ تافه:

"أبي سحر.."

لكنهم، ولا أعرف مَنْ هُمْ، الغرباء يُعيدون وضع رأسي جانبًا، وتُطفأ الأنوار.

ربيع 1991

كُنْتَ بين يديّ "شِبْرين" لا أكثر.

وكُنتُ قد أسميتك "حبة الفاصوليا" التي تتكوّر بوضعها الجنيني وكأنكَ تشتاقُ للغيابِ داخلي من جديد.

خرجْتَ مُستعجلا قبل أن تُكملَ شهرك الثامن، لذلك فأنتَ نادرًا ما تفتح عينيك الصغيرتين، وحين تفعل فإنك تظل تبحث في فضاء المكان عن شي ضاع منك، فأغني لك:

"أنا لَحبيبي وحبيبي إلي، يا عَصْفورَة بَيْضا لا بَقَى تِسْأَلي..

تستقرّ عيناك الصغيرتان الشهلاوان عليّ بطمأنينة الكون، وتسكن.

وأنت بين يديّ، هناك لأول مرة، في بلد الأعاجيب المتحققّة - مصر - رأيتُكَ بهاتين العَيْنين الغريبَتيْنْ، هزة صغيرة سَرَّبتْ القلق

لقلبي، قلتُ: "ماما، عيون ولدي ما تشْبهني"

ردّت بينما ترتب أغراضي دون أن تنظر لي:

"يِشْبَهْ ولْدْ إبْليس يمكن، والله ما أذكر شكله حتى، الله يلْعَنَه"!

لكنّي أتذكره جيدا.

لأنني كلما غِبْت في سديم النوم أستدعيه عبر حُلم عجائبيّ، مثل ذبابة ضخمة تحطّ على أنفي ولا تُغادرني حتى أفيق بكاءً صعبا.

تَمْتَمْتُ بهدوء بينما أنظر للطفل:

"يِشبهْ إياد"

وأتذكر شهقة أمي جيدًا، ضربت صدرها مثل مكلومة:

"من وين تعرفين اسمه"!

أجبتها بهدوء:

"نـــادى عليه صاحبه حيــن انتهى مِنّي.. وحيــن كنتم تلوذون بخوفكم بعيدًا عني.."

غضبها الممزوج بالعار جعلها تنتزع "طفلي" من حضني، بينما تقول:

"لومَا الحَرام ومَخافة اللـه.... آه"

أجبتها:

"سأسميه جابر"

ردّت ببرود:

"على هَواكْ"

يا جابر الحب، كيف لي أن أصف تعلقي بك؟

كنتَ لُعبتي الأثيرة التي أتشبّث بها كل الوقت، تنام وأبقى أشاغبك بإصبعي على خديك الناعمين مثل غيمة، أهمس لك باسمك، أعابثك لتصحو فأرى الجوهرتين الرماديتين، أحببت ابتساماتك الطارئة التي تنثر جرعات الفرح في روحي التي صَدأتْ منذ كُسِرَتْ بُلّورتي وعاداني المحيط!

أثق بكَ يا صغيري، وبأنك من سيجبر كُسوري كلها، أرفعُ طاقيتك القطنية الصغيرة جدا عن رأسك أشمّها وأنسى كل ما حدث وما سيكون، فأنت الرحمة التي ستسطع في روحي، أو أظنها قد فَعَلَتْ، فأحاول تلّمس إذا ما كنت تعرف بأنني أنا أمك الصغيرة التي كوّنتها/ شوّهتها الصُدفة/ الصَّدمة؟ هل تحتفظ بشذرات من ما كنا نحكي/ نُحيكهُ وأسرتي/ أسرتك التي تثقل بوجودي/ ك، كمثل "تُوْلولِ" نَبتَ على حين غفلة واستوطن جلدها الأصيل؟

سنحيا أنت وأنا متلازمين/ متلاصقين/ مزدوجين كـ طالع الجوزاء، دوما أحد اثنين أو كلاهما، ابني/ أخي.

وستكبر يا جابر، وتتكوّنْ وتَصير.

فأنتَ بين يَدَيّ مخلوق صغير يتحرك باستغراب/ استغراق وإصرار على الحياة، مخلوقٌ لا يشبه إلا نفسه، عينان فاتحتان، وفمٌ يشبهني مُطْبقٌ جيدا على الأسرار، صغير ومُحدد الشفاه، الأنف ناعم كمثل لؤلؤة وأخشى لمسه، أُذُنَان لم تتحدد ملامحهما بعد، وكفك النابتة من بين الأغطية والتي تقبض على إصبعي بـ حرص وحميمية ولاأريد لها فكاكًا، لذيذة كـ"شوكولاه" بيضاء!

جبينُكَ المتورّد بآثار الولادة، خَدّاك المحتقنان بالأحمر،.... يا قطعة من القدَرْ، سأُعطيك من كُلّي، كل ما تبقى مني، ستكون استثناءً إلهيًا لي وحدي.

سأعلّمك من حيث فهمت وما سأفهم، وسندرسُ سويًا، سأخبرك قصصا كثيرة عن الخير والشر، وعن "حبة الفاصوليا" و"الأميرة والساحر" و"سندريلا" وسنعيد مشاهدة مسلسل "رِيمي" وقد نبكيه سويا، سنتعلّم بصوت عالٍ أسماء الطيور والحيوانات والأزهار، سنُغني معًا لعائلة "بندلي"، وأهديك أشرطتي الخاصة لـ"فيروز" و"ماجدة الرومي"، وسنُشعل ألعابا نارية بيتية الصنع لكنها أكثر إمتاعا، سنَدور على البيوت لنجمع "القِرْقيعَان" ونهزج بـ "عطونا

اللـه يعطيكم..." وسنغترف المعلومات من "سين وجيم" شريف العلمي، وسأريك على الخارطة أين تقع بلادنا، سأدعوك لمشاهدة المسرحيات التي كَبرْتُ عليها ونأكل الفشار، وسنغرسُ بذورًا في حديقتنا ونراقبها كيف تبزغ براعمها كل يوم، سنُربي قطة بيضاء صغيرة ولطيفة، وسنختار لها اسمًا معا، أو لعلّك تفضل الكلاب؟

سنغني أغنياتنا الخاصة في السيارة حينما أكمل الـ 18، ولن ندير المذياع، وسنلعن سويا من يقترف الحماقات على الطريق ونضحك مثل مجنونيْن رائعيْن، وقد أختنق سعالًا وستناديني باسمي حين تطلب مني أن أكف عن الضحك خوفا علي، لذلك سأختار لي اسم دلع فلا يناديني به أحدٌ سواك، سأعيد التعرّف إلى الدنيا التي سُرقت مني بمحض غَمْضة، ولن يهمنا أحد!

دخلت أُمي عليّ في غرفتي فجأة، بينما أغيب أنا في وُعُودي لصغيري، تحرّك عينيها بيني وبينه وبنصف ابتسامة احترتُ كيف أفسرّها سألتني:

"رِضَعْ"؟

هززتُ رأسي بالإيجاب كمثل مراهقة نالت أحسن الدرجات، وكنت أُهَدْهِدُ "حبة الفاصوليا" بهدوء تام، محوّلة نظري نحو الشباك والشمس والحياة و... اللطف الرباني.

تتودّدين لابني الآن؟

ابني أنا الذي جاء نتاجًا لخوفكما يوم هَتْكي، أضفتماه لأسمائنا أنتِ وأبي ويكفيكما ذلك، وإلا..

لمَ لا تحاولين إرضاعه؟!

ولأن بداخل كل أنثى أمٌ مخفية.

كنتُ أتعلّم بنفسي كيف أعيد ترتيب جدولك أيها الصغير/ المتكوّر مثل حلزون لذيذ يُبكيه البرد ويَقرصه الجوع وترهقه الغازات حين يَضيق نفَسَه بها ويُخيفه الصوت العالي وتُهدئه الأغنيات الطفولية ويُبهجه صوت أمه، صوتي أنا حين أناديه/ أطمئنه إلى أنني أحبه جدا، أحبه بمقدار هلعي "تلك الليلة"، بمقدار غضبي من صمت المتفرجين الخائفين، بل، بمقدار فرحتي به، بالأمل الذي فتّقه بداخلي حين خرج طريا/ سليما/ مضيئا ومكتملا، صارخا بوجه الدنيا، منتصرًا على أعشاب أمي وخلطات جدتي للخلاص منه، مبتسما بـ"فداحة" بوجهه المنتفخ بآثار الحضور المتعسّر.

يتوقف بكاؤك/ صياحك حين تلتقي عيوننا يا حبة الفاصوليا الطرية اليانعة، فهل تعرفني حقا؟

فمنذ هذا الاكتشاف الذي يُزهر القلب، وأنا أودّ الطيران وأتَشّهى الرقص وأتحيّن الفرص للضحك بصوت عال!

صوت الممرضة الحنونة/ حنان مشحون بالرضا والألق تتمتم بمِصْرية مُحَبّبة:

"إيه العَسَل ده، بسم اللـه ما شاء اللـه"

لاعَبَتْهُ قليلا.. مَسَّدتْ على خَديّه، ثم سألتْ بهدوء:

"إلاّ قوليلي يا سلوى، همّ أهلك ما فرحوش بالواد ليه"؟؟

أجبتها:

"ومش حيفرحوا أبدا"

ردت سريعا وهي تضرب صدرها:

"يا ساتر ليه بس"!

ظلّت كلماتها وانعقاد حاجبيها صورة تدور في سقف الغرفة.. ثم غام كل شيء.

أظنها التقطت صغيري من بين يديّ.... ربما أغْميت، تعبًا وخيبة.

ثم بحزمة كبيرة جدا من "الجُنيهات" تم تسجيل "ابني" رسميا باسمي أبي وأمي، وصار "أخي" الصغير الذي حملت به أمي - رغما عنها - في الاحتلال ثم أنجبته في مصر بعد التحرير، والعبارة الرديفة للسؤال المتكرر مثل جهاز المجيب الآلي:

"مواليد الغزو اللـه لا يردّه"!

وأعلم كُنْهُ الدعاء الخفي.

والمعانـي الكثيرة المتشعبة الرابضة ورائه، فتستطيل ابتسامتي أمامهم، رغما عني، يخجلون ويهبط بُؤْبُؤُ العين للأرض، وتبرد أطرافي.

صيف 1991

عادَ الوطن يرتّب تفاصيله.

عُدنا.. ولم أَعُد.

عادَتْ سَحَـر، بإطلالة حديثة لم تُعجبني أبدا!

تَغَطّت تلك المراهقة التي كانت نابضة بالصوت العالي والعطر، تغطّتْ بالأسود وبلكنة "تَسَعْوَدَتْ" كثيرًا، لهجة لا تُشبهنا سألتني:

"وِشْ اخْبارِكْ"؟

هكذا؟ من دون أحضان ولا قُبَلْ؟

من دون لهفة في العينين، بل من دون كل ما سَطّرته أحلام يقظتي خلال الأشهر البعيدة الـ أَظْلَمَتْها الأدخنة والاختناق؟

فَتــرَتْ ابتسامتي.

وتلاشي شيء لا أعرفه بداخلي، أجبت:

"زَيْنَة"

يبدو بأن كلّ شيء صار معطوبا، حتى علاقتنا التي كانت مثل شُجيْرة صغيرة نامية بالاكتشافات المزهرة قبل أن تقتلعها رياح "اغسطس"

فكّرت بأنه ربما حين نكبر قليلا، وحين تترك الأحداث رائحتها عمليا، تتغير مذاقاتنا نحو الأشياء/ الأشخاص والأماكن، لكن الذاكرة تظلّ مثل عَدوّ مُتَخَفٍ بالرّمْزْ والإشْراط والتّداعي حتى لو أردنا حقيقة النسيان.

مُنبهرةً سألتني:

"إلاّ تعالي! صحيح أُمكْ كانت حامِل في الغزو"؟!

كنت أسكب الشاي لها ويهبط قلبي بالسؤال، أردّ وعيني في استكمال ضيافتها:

"من أين أتى جابر إذن"؟

مختنقة بفكرة/ نميمة وكلام كثير فضّلت أن تَدلقهم جميعهم وتنتهي:

"لكن أمي تقول بأن أمك كبيرة"!

صرختُ بها:

"خبريها بأن اللـه أكبر وقادر، ولستُ أنا من يُرشد امرأة تخفي وَجْهَهَا بالنّقاب وَرَعًا وتديُّنا وتُحَوْقِلْ وتُبَسْمل كل الوقت لـ قدرة اللـه"!!

أطرقَتْ تُعدّل الأسود الذي يلفّ رأسها ويحيلها لأخرى لا أعرفها.

تذكّرت جدتي نَصْرة وعِبَارَتُها الشّرخ في وجعِ الليل (بعد هذا العمر من سَيُصَدّقكما)؟!

دُفِنَتْ العجوز ولم تَغِب عبارتها الدبوس.

نظلّ نركُنْ حيواتنا على رصيف الانتظار أملًا بشكلٍ ساذجٍ في كثير من الأحيان.

فلماذا كنتُ أنتظرُ لقاءً سحريًا لـ سحر وفي رأسي عشرة تصورات تليقُ بلقاءٍ جديد بعد انفصال قَسْري للروحين الصغيرتين/ الصديقتين، وللوطن، وللأسئلة التي كانت لُعبتنا الأثيرة مثل فراشات تَخشى الاقتراب دفعةً واحدةً من النور، فتتوارى تَخَفُّفا وراءَ عبارات استِدراكية كـ "استغفر اللـه"!

هذا عُمرٌ جديد.

قفزةٌ حُرّةٌ في الهواء المسخّم بالملوثات!

فأن تُعاود اللقاء بأحباء دمّرتهم الحروب والقتل والأوجاع المتفاوتة بين الهُنا والهُناك، فأن تكون لاجئًا فهو جُرحٌ عميق بلاشك، قد يُحوّلك لوَحْشٍ مخفي يثور لأهوَنْ الأسباب.

اللقاء/ الحياة/ الفرصة الجديدة، يعني بأن يد اللـه رفَعَتكَ لدورةٍ جديدةٍ/ جديرة بالحمد، ووعد بالخير.

لكن، هناك ركنٌ معطّلٌ في راسي!

لأن سَحَر في لقائنا الأول/ الغريب، بعد الكارثة، كانت ومع كل كلمة يُطلقها فَمُها، كل ضحكة نابعة من قلب مرتاح/ محمي من رهاب العسكر ومنع التجوال والتفتيش والمصادرة وقلقِ اللون الأخضر في الملابس واللهجة الغريبة ورائحة العَرَقْ وشحّ المياه والعَجز التام والبرد والخواء والإذعان ولا وضوح الآت، الحرمان والسواد والتعطّل، مع كل ذلك، كانت تخرج من روحي، تنسل مثل تورّم خبيث يجتثّه جراح ماهر، بينما أدعو اللـه بتوسّل دافئ أن تغيب تمامًا عني، وللأبد!

الأمنيات تؤجّل ولا تُنسى.

بعد مُغادرتها لبيتها على الضفّة المقابلة من الشارع، راقبت نور

شباك غرفتها وقد أضيئ، قفزت لخزانتي وأمضيت وقتًا طويلا في تقليب عرائس "باربي" بدموع مالحة، قلّبت ذاكرتي إلى ما قبل وما بعد، بكيت كثيرًا على قلبي وآخر فَقْدي، حتى أوقفني نداء أمي:

"سلوى، تعالي عاوْنيني.. جابر جوعان"

رَكَنْتُ الدمى في الخزانة.

وصار جابر دميتي الأثيرة التي أقضي وقتي معها بسعادة واستغراب، فحبّه ورائحته "الحَليبيّة" العَبَقْ يَشدّاني من ياقتي، يَفْصِلاني قسرًا عن وحدتي، يساعداني خلال تيار التجربة الـ تفتقر الإنصاف.

صيف 1991

وجابر بلغَ شهره الثالث، وصار "يُناغي" بأنصافِ أحرف مُبعثرة، يُضحكنا جميعا، إلاّ سالم.

سالم أخي، تجاوز الـ 18 عاما لكنه لم يتجاوز لعنةَ "تلك الليلة"، ذلك الصمت/ العَجَزْ والخوف العميق، ولا النتيجة التي أفرزت "جابر" وأحالتني إلى "ثؤلول" غير مستحب.

سالم حانق/ غاضب/ مختنق بنفسه وبنا، مذ طارت الفراشات من غطائي الزهري في ليلة رطبة من آب.

ثم، لم يُرضِه التصرف/ الحل/ السّر/ الاتفاق الذي اختاره/ قرره أبي، ولم تُعجبه "أخوّة" مفروضة عليه، سالم، منذ ليلة الوجع والصمت مستمر يسكنه، عجلة الدنيا عاودت التحرّك في الكويت لكنه مازال يتقوقع في الانشغال بها، بل هو منشغل - كما علمت

لاحقا - في تنفيذ هرب مشروع، هرب سيقبل به الجميع.

عصرًا، تسرّب لي نحيب أمي من وراء باب غرفتها، ترددُّت طويلًا قبل الدخول، لكني فتحتُ البابَ دون طرق وسألت مباشرة:

"خير؟ من الذي ماتْ هذه المرة!"

سكتها سؤالي القاسي، أجابت من فورها:

"محد مات، سالم بْيَتْرِكْنا.."

استفهمت:

"للأبد"؟؟؟

صاحت في وجهي:

"أنتِ ما تِسْتِحين؟؟ ليش ما تعرفين تتكلمين؟!"

صحت:

"لأن بكاءك هستيريّ، ولم أفهم"!

ليلا، وَضُحَتْ الرؤية، قرَّر سالم الدراسة خارج الكويت، أو ربما قرر سالم الهرب منا جميعا، خارج الكويت.

وأمي.

استمرت بالنحيب، بينما أمضى أبي الليل بالحوقلة وإشعال الغليون، وكأنه كان ينفُثنا جميعنا تخففا.

في الأول من أغسطس 1991، سافَر سالم وتَرَكَنا.

قَبّل راسي أمي وأبي، ونظر نَحْوي مُطوًّلا قبل أن يَمضي بصمت، أمي مكتئبة، وأبي يتجاوز الارتباك بالقراءة في مكتبته الضخمة، وأنا أدور مثل ناعور في حَلَقَةِ الروتين مع جابر والعناية به، أُفكّر وأعيد استحضار نظرة سالم الأخيرة قبل أن يختفي وراء الباب، نظرة زجاجية بلا معنى.

أغسطس يُطل مُرتَديًا سَنَة جديدة!

كيف يُمكنني الهرب من إحياء ليلة الكَسْرْ بينما النتيجة ترْقد إلى جانبي مثل قدر؟

أحاول أن أنام، فيما يغفو جابر متدثرًا بالأبيض، ورأسي يُعاندني ولا يهدأ، رغم أن غطاء فراشي قد تبدّل لآخر جديد بمربعات سماوية تليق أكثر بمراهقتي الناضجة سريعا، سنة مرّت على انتفاض حواسي كلها، واشتعالي بالحُرقة... قَفَزَتْ رائحة حامضة للذاكرة.. بكيتُ طويلا، ونمت بعدها عميقا.

نمتُ، ولا أدري إن كان ما رأيت حلمًا أم شُبّه لي؛ كنتُ طيفًا

لا أعرفه، لفتاة ترتدي مَرْيَلَتَها "الكاروهات"، تَضفُر شعرها للوراء، وتمرح رفقة البنات في آخر مرحلة من المتوسطة!

بلغ التوتر أقصاه حين تَمثّل سالم بنظرته الأخيرة لي، تكبر وتكبر تكبر... ثم تتشوّه فأصرخ!

نهايات صيف 1991

ككلّ ليلة، السوادُ يُقرفص على رأسي، يَنبشُ وعاء ذاكرتي، هذا الهدوء الاستثنائي الـ يَسْكُن الشوارع المتأهّبة لنهار جديد، يفتحُ أبواب المستقبل لـ تلاميذه وطلابه، لنعاود وصل السنة المنقطعة بالـ الاحتلال، كان علي أن استغرق في نوم كثيف/ مُشْبِعْ يُمَكِّنني من ارتداء قناعي لأنجح في اللحاق بزميلات الدراسة، رفيقات القَرار المُشوّه الذي أعطته الوزارة لنا "دُفَعْ الدّمْجْ"(*)، وبها، يُفترض أن نستكمل السنة الـ ضاعت في مهب الحرب/ الحزن لنعقدها بالمرحلة اللاحقة للبدء بتكوين تاريخ جديد من الصداقات والمعرفة والتمنيات.

(*) **دفعة الدّمج:** قرار اتخذته وزارة التربية في الكويت بعد التحرير 91 بأن تدمج سنتين دراسيتين في سنة، خمسة أشهر لمرحلة وبعدها ينتقل الطالب للمرحلة الأعلى تعويضا للتأخير الدراسي الذي تسبب به الاحتلال.

لم أنَمْ إلا فجرًا بعد أن دارت الأفكار كلها حول مَغْزّلْ القلق، صحوت على صوت المنبّه!

يا اللـه، نسيته كما نسيت رائحة الورق، والمدرسة... وكنت مثل المنوّمة أبحث عن جابر الذي قضى ليلته عند أمي كي لا يقلقني، فأصحو مستعدة لنهار مَدْرَسّي بامتياز!

ولأن عامًا كاملا مرّ في الهَباء والتعب والانشِداه، كانت خلاله الأيام محشوة بالدقائق الـ تنساب بين شمس وقمر، وما بينهما من نكبات وبضعة سنتيميترات وكيلو غرامات كثيرة و... هالات سوداء أسفل الجلد والروح وغيرها، كنت غريبة بوجه أصفر، وشعر مربوط إلى الخلف ومريلة ضاقت، وحزن كفيل بأن يجعل مُعَلمة "الاجتماعيات" تجولْ بعينيها بين 30 طالبة لتتجاوزهم وتسألني تحديدًا:

"سلوى، عندكم أسير أو شهيد"؟؟

أكثر من ستين عينًا اقتنصتني في لحظة حَنونة مشتركة!

كان ردّي شاحبًا مثل هيئتي:

"تـــنــشِقْ"

بها أومأتُ نَفْيًا وتَمتمتُ أن "لا".

أرْعَبَها صمتي وإجابتي اللامباليتان، فيما تبادَلَتْ الطالبات النظرات المُستهجنة فيما بينهن.

في آخر النهار، طلَبَتْ المعلمة مني لقاءً عاجلًا مع وليّ أمري.

ظهرًا كنت أحكي لأمي عما حَدَثَ في المدرسة، إذْ قَسَّمتْ الإدارة الطالبات إلى فئتين، سَحَرْ ومن خرج من "الديرة" خلال الاحتلال وواصل تعليمه "هناك" سيكونون ضمن ما أسموهم "فصائل التّعمير" وسيكتفون بترميم المدرسة - معنويا -، بينما "الصّامدون"؛ نحن ومن احترق في ليل طويل وسخام عظيم، سنواصل تعليمنا الذي تأخرنا عنه لمدة عام.

لم تُعلّق أمي.

أمي نجيبة تَغيبُ في ملكوت لا يُفهم، سألني أبي:

"ما أخبار الفتيات بعد الاحتلال"؟

ابتسمت:

"المؤكد أنها أفضل من أخباري"!

ابتلعَ غصّته، وابتلعت أنا طَلَب المُدِّرسة الانفعالي باستدعاء ولي أمري، ومنذ الغد، سامرح وافتعل مرحًا مُدويًا في مدرستي!

شتاء 1992

كنتُ قد وَدُّعت مَريلة الكاروهات سريعًا وإلى الأبد، وعَدّلت تصفيفة شعري بذيل معقود للخلف وخصلات تصل حتى ذقني ومرطب شفاه بطعم الكرز يلوّن شُحوبي وحذاء أسود بكعب مرتفع قليلا، وحقيبة مدرسية تليق بفتاة الثانوية وزيّها الذي يكشف عن أنوثة باهرة وناضجة مع حمالات الصدر الدانتيل الـ تَظهر من وراء القميص الأبيض وتنورة ضيقة باللون الكحلي الفاخر، زِيّنا الرسمي الذي يُقلق المدرسات وتستثار منه المديرة الخمسينية، وتضيق عيناها.

وصغيري الذي يكبُر وبدأ يُرَددْ: با.... با.... وأماااا!

ويلعب الغميضة مع جدّه/ أبيه.

ويَفتح كفّه الصغيرة لجدته/ أمه، مناديا.

طفلي أنا الذي يصيح حين اللعب ويثير الضجة من حوله، وَلَدي الذي صار يزحف لاكتشاف العالم من حوله، ويثيره مَلمس الزر في قميصه البيتي، صغيري الذي بدؤوا يخبرونه بأن جدّته، هي أمه، وأحتارُ أنا!

لأنه وبفطرته الحبيبة يلتفت نحوي، وبعباراتي أشير له بـ"ماما نجيبة"!

واتفقنا على حل وسط، لأكون بالنسبة له "سَلاّوي" أو "لاوِي" كما يلفظها لسانه الشّهْد، يَسرقه أبي بعيدا عن نزاعنا الخفي، بينما هو يركل الهواء فرحًا، شغوفا بالعُلو الشاهق الذي يَقذفه باتجاهه وصياحه يملأ روحي حبًا،... أَسْتغرقُ في دراستي، لكن ذهني يتشتت، فأنعزلُ للقراءة!

***

لم تكن المعاناة هي ليلة طارت الفراشات من روحي فَزعًا، ولا حين تكَوَّنتْ مُضغة بداخلي إثرَ فَتْكٍ عابرٍ، ولا حتى حين استحلت "تُؤلولا" بَشعًا بين عيونٍ تعرفني جيدا ولم أتعرّف بغيرها، لأجد لنفسي فسحة ضمن خارطة حياتهم، ولا أُقْبَلْ، لا.

بل الجُرح الكبير كان قد لامسة نُثار الملح حين هَجم علّي

السؤال الواسع مثل صرخة تَسحَبُك من نوم مستمر، هَجَم علّي السؤال ضمن اختبار نهائي لمنهج اللغة العربية ليأمرنا بالكتابة الحرة كما يلي:

(اكتبي موضوعًا إنشائيًا متكامل الأركان والصور وبلغةٍ سليمةٍ حول تجربة الاحتلال العراقي الغاشم على دولة الكويت، فيما لا يزيد عن ثلاث صفحات)؟

بقيتُ أُبحلقُ في الكلمات المرصوصة على سطر واحد، بكلمات متفقة تماما فيما تريد، كنت مثل باحث/ جاهل يحاول تفكيك رسمًا هيروغليفيا صعبا، بل مستحيل، لوهلة فقدت القدرةَ على التّنفس، ثم على القراءة ثم على الفهم، شيء ما سطع على سطح الورقة ثم سَفَحَ مَخلوقا أليفا على بياضها، غامَتْ روحي وتضاعفت روائح الفتيات الحامضة من حولي، غير أني لم أستطع التوقف عن موجه الضحك الهستيري الذي اجتاحني ورنّت له القاعة المتسعة وعيون الطالبات والمدرّسات تشيّعني باستهجان كبير بينما أيادٍ غريبة تتناوب على سَحْبي/ سَحْلي باتجاه الباب، وأنا؟ بين كَركراتي العالية الغائبة في الدمع والنشيج والنَفَسْ المتهدج، أتمرجح بين أياديهن غير قادرة على التحكم في جسدي، أصوات كلها تعاتبني وتهدئ من جنوني المفاجئ الذي هبط بلارحمة، ومثل مخبولة ضاعفت فعلتها كنت أردد بفم جاف:

"فيما لا يزيد عن ثلاثة صـــــفـــــ.... حـــ.... اااااات!! فيما لا يزيد....... فيما لا يزيد هههههههههه"!

ماءٌ بارد رُش على وجهي، نزل على جيدي، بينما مدرسة لا أعرفها، تضع كفها الساخن على جبيني وتقرأ:

"بسم اللـه الشافي المعافي... بسم اللـه الذي لايضر مع اسمه شيء.."

الجرح كان لايزال طريا، فما غيّبته سنوات الدراسة التي كرّت من بين الأيام سراعًا ولم ألحظها/ أستمتع/ أبتهج بها، كنت أجري، أسابقها، وهمّي - كل همّي - الانتهاء منها، والخلاص، لأنني كنت موزعة على دورين كبيرين مزعجين، الدراسة والأمومة، فهل يلتئم الأذى؟

قد كان اختبار "هستيريا" اللغة العربية هو آخر ما قدمته في الثانوية العامة، والغريب بأنني تخرجت بنسبة عالية، ولم أُعاقب أو أُسأل على فِعلي المَجنون ذاك، بل ولم يهتم أحد لمعرفة السبب وراء خَبَلي المباغت!

في الحقيقة، لاأدري كيف مَضتْ سنوات الدراسة الأصعب، ففي مرحلتين كانتا هما مِفصل المستقبل الذي كان صدئًا بالتجربة،

وجدتني أدسّ قلقي/ قلبي بين الكتب لأتحاشى أية هزة عاصفة قد تودي بي لمنزلق أليم، لذلك لم أكن أضجر أبدا، فبين الدراسة وتفاصيلها، وبين أن ألهو بـ أحلام يقظتي التي أدمنتها بكامل وعيي، وبين "جابري" الذي يملأ الدنيا فرحا، أعود متى ما أردت للطفلة التي كُنتها، وفَقَدْتُها على عَجَل.

ذات مساء، اكتشفت بأنني أهدرت ثلاث ساعات في تَمَنّي تربية عدد من الضفادع!

ألغيت الفكرة الأُمنية بعد أن تذكرت بأن للضفادع عيون لا تروق لي.

أهرب من محيطي.

أهرب من الصورة المنتصبة في عقلي ولا تبهت، إذ حين نستدعي من خزانة الذاكرة ما نحنّ إليه، نستنطق الأحداث كلها بوضوح وحِدّة لينتثر بعدها الدمع كثيفا ببياض يغيم معه كل شيء، أو تُسحب زاوية الفم بالضحكات، ففضيلة الصورة أنها مُخْتَصِرة للحقيقة التي نعرف.

يغفو "جابري" ولا يفتقده أحد.

يمضي حياته البسيطة في غرفتي، يأكل وينام ويمرح ويتداول ألفاظا مُبهمة، يُطالع أفلاما مخصصة للأطفال، يُعيد تلحين ما يستَمع إليه من أغنيات، يغيبُ معي وينغمس ويتوحّد، لكنه حين

يلفُتَ سمْعَهُ صوت باب غرفة والديّ، يَسكُن فجأة ويشير بسبابته الصغيرة متسائلا:

"ماما"؟!

ولا ينتظرُ إجابتي، يتَخلّص من كل ألعابه ويجري متعثرًا باتجاهها وبخبطات رجليه الصغيرتين يقفز قربها، ليستكمل مهرجان اللعب.

في الخفاء كنت أوَشْوِشُ صغيري:

"علينا أن نبرع في الحفاظ على ربيع أيامنا، فلا يحزن أحدنا الآخر يا حبيبي"

وجابر لم يخذلني أبدا.

كان طفلًا ذكيا بعينين يشتعل بهما النزق، يملأُ حوض استحمامه الأزرق بالمـــاء والصابون، ويصنع رغوة كثيفة/ كبيرة، يحتضنها على ســـاعديه، ويأتيني راكضـــا ليريني ســـحابته البيضاء بفرح الصانع!

يقول: "يبتها من السما.. حقّك"!

يفاجئني كل لحظة لعب، بفرح مغلف بالحب.

أتذكر حينما كان صغيرا جدا وبحجم كفي مجتمعتين، راقبته

طويلا لأكثر من ساعتين، تابعت تنفسه السريع مثل قطة حديثة الولادة، وبدأتُ في البكاء!

وحين كبُرَ قليلا وخرج للشمس والنور والأشجار، لاعَبَتْهُ القطط وزقزقت له العصافير، وبكيته أيضا!

فاستحال فتى يافعًا/ مشرقا بعينين ساحرتين برماديتهما وشعر كاللّيل، تلَقَّفتْهُ أرضُ اللـه وسماؤه..

بكيته كذلك!

راضية بشقائي الصغير، بل مستمتعة به، لولا الآخرون.. لولا الآخرون.

فالآخر، مهما يكن هو تهديد لك، يَسلب حريّتك، مُحِبًا كان أم عَدُوا.

ففي "نهار جُمعة" جديد، طُرق الباب مبكرًا، جابر بسنواته الخمس يقضم خبزة طازجة، وممسكة بـه، فتحتُ الباب.

كانت والدة سحـر التي نسيتُ ملامحها من وراء النقاب الأسود، تُسلِّم عليّ بحرارة وصوت مشتعل بالبهجة التي لم تستطع مداراتها، وهي تسألني عن أمي مرات متتاليات، أشرتُ لها بالدخول أولا، وحين أَخَذَتْ مكانها المعتاد في صالة بيتنا، حيّتها أمي، فاحتضنتا بعضهما بحرارة خالصة لم أفهم سببها، حتى رفعت نقابها، كاشفة

عن وجه معبّأ بالانفعال والاحمرار، وأخبرتنا بينما أصابعها تداعب جابر بقرص خديه:

"اليوم فرحة عمري، يا أم سالم، اليوم عقد قران سحر، في بيتنا بعد صلاة العشاء، يارب تفرحون بهالصغير وأولاده، لا تخلّون! حياكم اللـه"

هكذا دَلقَتْ بشارتها في وجوهنا وأخذت تُقبّل جابر من خديه فرحًا بالدنيا التي ابتسمت لها، وغادرتنا بينما تعيد ربط نقابها بإحكام قاس على وجهها، فيما كان جابر يمسح بكفه الصغيرة مكان قبلاتها من خديه بانزعاج، وأنا أُكَرْكِرْ بصوت عال/ أردد جملتها:

"اليوم فرحة عمرها يا أم سالم... فرحة عمرها..."!

ساهمة أمي في الشباك تشيعها بنظراتها، وهي تردد "أوّل اللـه.. اللـه يتمم عليها"

لكن الفرحة لم تكن كاملة، لأن تاريخنا المشـترك يفيض علينا بالمواجع، فإن الفترة منذ 1991 حتى 2003، كانت سنوات متكررة "السيناريوهات"، سـخية جدا بالتهديدات من "الآخر/ الجار"، فكم من المرّات منذ نلنا الحرية أُحكمت الشـبابيك باللاصق الشـرس، وانغمسـت قلوبنا بالدعـوات، وتآلفت الإذاعات بالنصح وحُسـن

التصرّف، والدفاع المدني يضمد خيباتنا لخســائر محتملة أقل في الوطن والأرواح.

"صَدّام يهدد" في كل مرة نتبادلها، ولا يكف الأذى يكشف عن طرقه الخبيثة في الإرهاب.

صيف 1995

ممسكةً بصفحة الجريدة المطوية على الفرح، أركضُ باتجاه باب بيت سحر، أرنّ جرسهم بثلاث مرات متتاليات، رنّتنا السرية هي وأنا، تماما كما كنا نفعل "قبل الغزو"، وأردفها بـــجواب على استفهام الصوت المشوّش من وراء السماعة "منو"؟! أرد بـ"أنا سلوى، أبي سَحَّورة"! ويُفتح الباب على وجه لا أميّزه، خطوتان للوراء، أداري خجلي وسنواتي الـ17 المبتهجة بـــما بين يدي، أسأل:

"وين سحر"؟

العين الغريبة ترصدني من الأسفل أولا حتى جبيني المندّى بالاندهاش، يطل فجأة وجه مألوف لي، "أم سحر":

"هلا هلا سلاّوي تعالي يُمّة حَيّاجْ"

وتوشوش الغريب "هذه سلوى بنت جيراننا أم سالم، صديقة سَحَر"

والوجه الغريب بلحية كثّة صعبة بحرارة الصيف، ووجه لا يتذكر الابتسامة، وعينان تحققان في وجهي!

أخيرا، وحين تصادَفتُ بسحر في صالة بيتهم، وضعت الصفحة المطوية من الجريدة بين عينيها، حتى احولّتا!

"أسامينا هنا يا حلوة! أنت أدب لغة إنكليزية، وأنا علوم المكتبات"

لم أنهِ عبارتي ولم يهدأ مهرجان فرحي الذي نثرته في بيت سحر، حتى تَحرّك الجبل الغريب:

"سحر لن تدخل الجامعة"

للحظات صمت بقيت أتأمل في كادر العزاء المنصوب الذي أقف وسطه مجنونة بالفرح، في لحظة شعرت بأن العالم قد فقد ألوانه واكتفى بلون واحد.

والدة سحر طيف أسود.

وسحر مغطاة به من رأسها حتى قدميها، وهذا الغريب لحيته شجرة سوداء!

كسرتُ الصمت، "اختاري مستقبلك".

ولأنني اخترت ما أحب، قبّلني والدي قبلةً طويلة على رأسي، طويلة جدا عمرها خمس سنوات من البُعد، وأزهَرَ شيء متبرعم بداخلي.

فأمضيت النهار كله بغناء مزدوج مع جابري، صنعنا الحلوى ونفخنا البالونات الصابونية، وفكرت طويلا، ماذا سأرتدي في يومي الأول في الكلية؟

ليلا، هاتَفَتْ أمي أخي سالم.

أخبرته بقبولي في كلية علوم المكتبات، ولعله تمنى في سرّه الخير، لكنه تساءل لماذا المكتبات؟؟

صغت له سؤالا سرّيا، وصنعت له الإجابة افتراضيا، لأنني أهرب منكم جميعا نحو الكتب، نحو حكايات الناس وتاريخهم، ولأتعرّف بمن هم أكثر شقاءً مني.

أقرأ تاريخا محتشدًا بالأعاجيب التي أصدقها وحدي، وأعيد تشكيل وقائعها أحيانا بالمقلوب، لأنني ألوذ بالمكتبة كلما تعثَّرتْ خطاي نحو الخارج، وادّعي بأن هناك بحث عميق ينتظرني لأنهيه!

أجمع كل العناوين التي تصب في لُبّ "البحث المتخيّل" وأتنقّل بين المعارف وأغيبُ في عوالم ما كنتُ أعرفها، أعيد سَرْد التفاصيل

لجابر الصغير حين يتعذّر عليه النوم، فيخلد للراحة ممتلئًا بالقصص، فهل أحلى من الكتب؟

على الأقل، هربي حميد ويمتّعني.

أما هربك يا سالم، فلا معنى له إلاّ التّواري.

أزرعُ راسي في كتاب جديد كلما اجتمعت العائلة الكبيرة في بيتنا الصغير.

وأنا بعيدة عنهم، عن تفاصيلهم، أفراحهم لا تعنيني كما لايهمّني الحزن حين يهبط عليهم، أنا وحيدة، كما كنت وحيدة جدا مثل ورقة أخيرة في غصن يابس، فمن بين صفحات الكتب أنتقي عوائلَ جديدةً لي، اتنقل بين الأزمنة وأعيش من جديد، أنغمسُ في أدوارٍ لم تُخلق لي، وملابس يُغريني ارتدائها، ولغاتٍ يُعجبني اللحن السري فيها، أرددها شعرًا ولا أمَلّ!

أحفظُها وأعيدُ نسجها من جديد "لجابري" الذي تُدهشة التفاصيل، وتُشرق عيناه برَماديّتهما الوادِعة.

مستغرقة في حكايات الهند المغولية وتاريخها البعيد، عندما ركض جابر لحضني بوجه محتقن مبلل بالحَنق والدمع، ومن بين عبراته التي جاهد لإخفائها ينهار باكيا/ شاكيا:

"عيال عمي مرزوق ينادوني يا المصري! ليش ينادوني جِذِي؟؟ انا مو مَصْري سلاّو... مو مَصْري"!

ويفجعُني بكاؤك وحريق قلبك، يا صغيري!

ضممتُه لحضني جيدا، تعالى غَضبي عليهم فجأة، استحلت لبؤة تحمي صغيرها، نزلتُ للجمع المحتفل بلا أدري ماذا، وبصوت عالٍ من طرف السلّم ألقيت علَيهم خطبتي الصغيرة:

"هذا صغيـــــري الذي جاهَدَ ليخرج للحياة من قلب المعركة حين كنتم تلتحفون عباءات أمهاتكم في المنافي يا أنصاف ذكور! ناموا في الخديعة مطمئنين، وإلا فَتَحْتُ عليكم طوفانا من حقائق ستجْرَحكُم جيدًا!"

ثم خاطبتُ سنواته الصغيرة، وذكاءه، وكمثل شاب يافع أخبرته بأنه وُلدَ في مصر لأن الكويت كانت رمادًا وأن وقته للخروج للدنيا كان قد حان، ولم تكن البلد مهيئة لاحتضان أولى صيحاته، ففهم تماما وأعجبه تميّزه.

سطور من المؤلفة:

(سأقفز بين السنوات بلا تسلسل منطقي بالنسبة لكم، غير أن رابطًا يتماهى وتاريخ البطلة سيوصلكم للحقيقة، فاغفروا لي)

كنتُ أجيدُ إحياء الذكرى المتوالية بصوت هسهسةِ جناحات فراشاتي الزهرية حين فزعت في 1990، حتى كبرت جيدًا الآن وما عدتُ أحسن سوى استخدام ذاكرتي البصرية بإتقان ودقة شديدين، فأتواصل مع نفسي دمعًا ووجعًا لأن الذكرى حين تهدر، تجيئ اغتصابًا وثقلًا! وحينها، تتحامل أمي على نفسها وتتناسى صورة كاملة الأركان كنت أنا فقط ضحيتها، في ليلٍ غادَرَتْهُ كل ألوان الطمأنينة دفعة واحدة، ليلة من ضعف وخواء وذل، وكثير من الأسئلة انطلقت من منتصف رأسي والصورة إلى جانبي شبه عنيفة التفاصيل، وبشاربٍ كثّ يدنو/ يلتصق بي جدًا، ورائحة عرق واشتهاء ولون أخضر يتكاثف ليغمرني و"فحيح" متوازٍ مع ضربات ألم كانت تنوي فتح المغارة الصغيرة بعناد لا يحتمل!

جلّ ما أتذكره؛ صياحي العالي/ بُحة صوتي الذي انشقّ مشدوها بالأذى، مندهشةً بلافعل أهلي!

كانت ليلة فاغِرَة الفاهْ.

تتحامَلُ أُمي على تَعبها/ صَدمتها، لكنها تُحسن إفراغ حُرقَتها في مجالس العزاء، تُوَاسي بُكاءً كلّ المَحزونين في فقْدْ حبيب أو إحياء ذكرى وفاة "إمام" أو أربعينيّة أو سَنَوية، فلا تُفوّت فُرصها بالنبش في صفحات الوفيات في الصحف، تضعُ عباءَتها وتفرغ آهاتَها، دمعًا، فتعود بعينين ساهمتين من فرط الهدوء.

صيف 1997

في منتصف يوم جمعة ساخن بالقَيْظ، فَزِعَةً أَفَقْت، غارقة بالعَرَق البارد وبضَرَباتِ قلبٍ عالية تدق في أذنيّ، كنت أتَلَفّت باحثة عن الوشاح الذي ضاع مني على أطراف الحلم!

اخْتَفَى في سديم السّواد وخَلَتْ منه كفّي، فصحوتُ بكَفٍ مُتَعَرّقة خالية لا تُمسك بأيّ شيء، إلا الهواء.

يتكرر هذا الحلُم، يتفنّن في الظهور والتشكل واختلاف بعض التفاصيل، غير أن الوشاح الأحمر علامة أكيدة لا تُغادر الحلم، إلا على نهاياته، فيضيع مني، يتسرب بشكل لا مفهوم من كفي، ويؤذيني جدا!

يومَها قررت.

قررت بأن أحمي نفسي التي تشوّهت بالضياع، كي لا أتمرّغ في الجحيم أكثر، وكي لا أُصاب ببلادة فجائية، ولا أضيع في مساحات جديدة من الفراغ، وكي لا تظل تلك اللقطات المزعجة تركض في أسلاك عقلي، كنت أحتاج لضماد إنساني يحتويني، يلفّ رأسي ويحميه من فوضاه الرهيبة، كنت أحتاج وبشدة لأن أقفز للضفة الأخرى من الدنيا، بينما أتحاشى السقوط في الصورة الكبيرة التي رسمها لي القدر.

فعزلتُ لروحي موعدًا.

لأن تلك المشاهد الصعبة/ البعيدة/ المتكررة تَلْتَفّ حول عقلي مثل ثعبان يكبر ويكبر، يسحب وشاحي الحريري في الحلم حتى يضيع على أطرافه.... وأصحو بعدها يهدّني التعب.

ارْتَمَيتُ بهدوء على كُرسي المُعالج الذي أبدى إعجابه باسمي وحضوري، وانتباهي العالي لضرورة الخضوع للكلام والتنفيس، بجلساتٍ متتالية:

"أشعُر بأني مُعلّقة على أطراف نافذة تَميدُ من تحتها الأرض، بينما تُمسِكُ بي يدٌ أسطورية الضخامة تمتد من السماء ولا أقوى على تمييزها إثر النور الساطع فوقها، والوشاح الأحمر، الحريريّ يعصفُ به هواء النافذة فيحجب الرؤية عني حتى يختفي ويضيع

تسرّب، فأعود وأتدلىّ غير مستقرة.. هكذا أنا أشعر منذ 6 سنوات!
ولدها وأنا أتوسل للهواء أن يكف عن الدوران بي، وأتوسل اليد الأسطورية أن تنجح في سحبي نحوها.

(صمت طويل)

: "وماذا أيضا"؟

يسألني مُعالجي الذي يَقبعُ خلفي/ وراء الكرسي المائِل المُهيأ للاعترافات الطويلة.

: "الطّيف! ذو الرائحة!"

: "ما لونه؟"

"أخضر كثيف يغمرني بحيث لا أرى سواه، تضيع الدنيا وراءه."

"والرائحة"؟

"عرقّ، واشتهاء.. ذكورة تبغي المزيد، حرارة مضاعفة وعويل.."

"متى يغمرك الطيف ورائحته؟"

"كلما غَضبتُ.. دُهِشْتُ... كلما صار أمر لا يصدّق من فرطِ لا معقوليته.. وما أكثر ما يكون...!"

"سلوى.. الآن، بماذا تشعرين"؟

"بأن رأسي متجمّد!"

هل كنت أعاين الكلمات قبل أن يُطلقها فمي إجابات رزينة للطبيب؟

هذا الغريب، هذا من سمحتُ له بتفحصِ/ نبشِ أدراج قلبي العتيقة المغلقة بإحكام على فُوّهة اعترافات حارقة.. فهل سيدّلني على الطريق؟

(صمت طويل)

سألني: "نكتفي"؟

أجبته: "نكتفي"

أديرُ مذياع السيارة بعد أن غَلفني صوت الشارع، ومثل إشارة هي ليست ابنة الصدفة، تنهش روحي عبارة التنهد هذه:

(الضائعُ في حياته يعيشها كمدًا، فلن ترى ضائعا مرتاحا..)

إصبعي على زر الإغلاق.

أطلق زفرة رضا عن نفسي، و.. أبدد الرائحة المتكثّفة.

هل كان يضيع مني صوت الحياة؟

كم أبلغ من العمر الآن.

حين هُرسَتْ بتلاتي أول تفتّحها، ما احتفلت بعدها بعيدٍ لميلادي.

صرت أقفز على التاريخ وكأنني قد ألغيت كينونتي وارتباطي بالصيحة الأولى، إذ صارت الصيحة الثانية والثالثة هما الأشد حضورًا في تاريخي وداخلي.

أي فتاة استحلتها بعد عبث الساسة والسياسة؟ ما معنى أن نصير قربانًا يُضحى بنا ليسلم الآخر؟

فالشهيد مات وكُرّمْ.

والأسير غابَ واستُذكِرْ.

فماذا عني أنا؟

تحت أي التصنيفات يمكن أن أُدَسُ/ أُدَاسُ بتجربتي/ كارثتي وأذاي؟

والبلد؟ سلطةُ وشَعْبٌ، بماذا يحتفلان كلما عَاوَد "فبراير" تلوّنه الأعلام ودفء الشمس؟

أتراهما يغنيان طربًا هتكي وانتهاكي؟

يحتفلان رقصًا على هسيس الفراشات التي طارت فزعًا؟

يحتفيان غناءً بهرس أمنياتي الصغيرة التي كانت تكبر معي.. بيدِ الغريب؟

أنا التي تتكوّر بحضن البيت حتى يُغادرنا شهر الاحتفالات الكاذبة، الشهر المُفصّل على قياسات من أرادوا له أن يكون حاضنًا للفرح المزيف، الفرح الزائغ النوايا!

هُمْ أرادوا لنا التعاسة مفاجأة ومصيرًا.

هُمْ قايضوا بنا على ميدانِ المعاركِ الخاسرة.

هُمْ هَتكوا سترنا في ليل لم يكن آمنا كفاية لمُواطن استودَعهم حياته.

هُمْ تركونا نهبًا ومشاعًا بقلوبٍ برّدتها الطمأنينة على أرواحهم.

هُمْ أعادوا ترتيب البيت، فَكُنّا نحنُ نَرْدُ المُقامَرَةِ الذي به يلعبون.

هُمْ قدّمونا قرابينًا للوحش مقايضةً وتخليًا.

وبماذا انتهينا بعد سبعة أشهر؟

بطاقةٌ شخصية غير صالحة لأنها مخرومة، ومَوْسومة جِباهَنا بقبول 500 ركلة/ بصقة/ دينار؛ هي كل الثمن على شرعية تمسكنا بالمستقبل الوَعْدْ.

كل ما مرَ بنا من حريق واحتراق هو مَحضُ هراء، والوطن الـ يَتنصّل من محبةِ أبنائه، فإن التمسك به هراء،... فلمن يا ترى كان الدرس عميقا؟

سألني/ انتشلني المعالج الرؤوف من هَذياني المسترسل:

"نكتفي"؟!

أجبته راحة: "نكتفي"

خرجت من عنده بخفة قطة صغيرة اغتسلت تحت المطر.

وفي رأسي كلمات تتحرك سراعا:

"جزعي خالص، وحزني نخب أصيل.. لا يشوبه فرح عابر"

وحزني مستمر.

لا يُنقض بالبهجة ولا حتى بمجيئ جابر.

كذبنا على الدنيا حتى صدّقت هي، أننا أكبر الكاذبين.

وصار لزامًا علي هذه المرة أن ألقي "ابني" في اليمّ لأكثر من عشرين سنة حتى أؤمن/ أتجرّع/ أقبل حقيقة لازمةً بأن لنا أمًا مشتركة!

أنا الطفلة/ الشابة/ الأم.. إجبارًا.

ثم الطفلة/ الشابة الأخت.. إصرارًا.

وأنا سلوى المرمية بينهما كتلة هلامية تشدّ من جهات عدة، نحو الادعاء/ القبول/ الموافقة/ المسايرة.. واستحسان تام لما يوضع على سُفْرَةِ الدنيا!

قطُّعت قلبي ووزعته بالتساوي عليهم جميعا.

كان مطلوبا مني أن أقبلهم بشروطهم/ بتحولاتهم التي تتأرجح بين الأزرق والأحمر والكثير من الرمادي، فيصحو مزاجهم بالأزرق ثم يحتقن بالأحمر، ويشتعل ذنبٌ قديم ويغبشنا الرمادي، فلا أعود أميز بين أب وأم، أو أتعرّف بأخ هرب من عاره كذبًا، وأتذكّر جدةً شهدت السقوط في الطين كلّه، وما أظنها استحملته فـ رَحلَتْ.

صديقي المعالج يستحثني:

"خبريني أكثر"؟

"حياتي سرّ كبير غير قابل للبلع!"

(صمت طويل)

"سألتُ أمي مرة، حين أموت هل سيحزن جابر عليّ حزن

تستحقه الأمهات؟ أم سأُدفن بالسرّ ومعه وفيه وتغيب تلك الغيمة المكدِّرة بالسواد وتصفو سماؤكم؟!

سألني معالجي مقاطعا:

"ولم تفترضين موتك قبلهم"؟؟

(صمت طويل)

" لكن أمي لم تسألني"!

"وانا الآن أسألك"؟

شاشة عقلي تومض بالإجابات المتوالية، أنتقي:

"ربما لأن حزني عظيم؟ من يحتمل؟ ربما لأن أمي ابتهجت بابن ذكر جديد ما كانت تحلم به؟!... أو لأنني تحولت بعد الغريب إلى جثة تنفث رمادًا؟ أو لأنني الثّؤلول الذي سيُنتزع/ يُذاب/ يُزال يوما ويستعيدُ جلد عائلتي عافيته"؟

"سلوى"!

"نعم"

: "ماذا تَتَمَنّينْ الآن"؟

"أن أترك هذا المكان وأركب دراجتي الصغيرة القديمة، أنهب بعجلاتها حقولًا واسعة ممتلئة بالشجر، أهرب.. أهرب منكم جميعا....."

(صوت الورق يغلق على مهل وأنتظر الكلمة السرّ)

"نكتفي"؟

"نكتفي"

صيف 2004

يومَ خَطّ شاربك أعلى شفتيك الصغيرتين يا جابر، انتبهت إلى أنك لامست سقف الـ 13 تقريبا!

يوم أزعجك بكائي الشديد حين دقّ بابنا جارنا "إسْعَيوِذْ"*- خباز الغزو - الذي صار اليوم المهندس سعود، دقّ بابنا متأبطًا ذراع والدته وشهادته العليا، بوجهين كانا ينضحان أملا بخطبتي، قلت لي واشتعال عينيك بالصدق دمّرني:

"خلاص، خليك عندنا بالبيت لاتتزْوِجين بس لا تبكين"!

زرعتُكَ في صدري حُضنًا طويلا حتى هدأت، فيما ذابت أمي في بكائها ليلا، وأسرّت لأبي بكل ما حدث، إذ فُتح باب غرفتي بينما مُراهقي يغفو إلى جانبي، لينقل أبي نظراته بيني وبين جابر ويتنهّد، بالعًا سؤاله المتسّع الذي يَعْلَقُ في سقف حلقه في كل مرة

يتَّقدُ فيها صدري ويتهيئ للإزهار، وأضُنّ عليه بالماء فلا يتكوّن اخضرار!

"ماذا يسألك"؟

"بودّه يقول؛ لو كان جابر عذرك فنحن نربي ولدنا"!

(صمت يطول)

"وهل هذا فعلا السبب"؟

أرد من فوري:

"دكتور! كيف لي أن أشارك شخصًا كل حياتي وجسدي بينما أخبئ بين رُموشي حقيقتي المُرّة/ المبُهَمة/ المُدَمّرة/ المُفجِعَة؟ كيف لي باعتقادك سأحتمل "مربّع المِيمات" المتصل بالتعب هذا دون الإفصاح عنه أو الاعتراف به"؟!

"وكيف تتخلصين من كل هذا"؟

"أتنصّل/ أنسحبُ/ أختفي/ أتَوارى! و"مربع الألفات" المتصل هذا يريحني ويخلّصني،...

دكتور؛ نسيت أخبرك فأنا أعمل الآن بوظيفة تناسبني جدًا.

"ممتاز! أين"؟؟

"مكتبة صغيرة متوارية تعبق برائحة الخشب والنشادر والقرطاسية :

والغرباء... مكتبة كنت أبتاع منها وأنا طفلة حينما تعلّمت أول حروف القراءة، نزورها أبي وأنا.. هنا في مكان ذاكرتي الطيبة الآن أعمل"!

: "سلوى... أين ترين نفسك الآن"؟

"في سينما الأحلام الخاطفة، مثل نموذج مختلف في كل مرة لامرأةٍ من زمان مختلف، خليط من نساء الكون الموسومات بالعذاب، أعيش بربع حياة، أتدلى بخيط رفيع جدا، والنافذة واسعة جدا، والأرض تميد من تحتي.. والشال يضيع في كل مرة.. لا أظن بأنه يحق لي من بعد التدمير/ التهشيم/ التعثر/ التألّم بأن أعيش إلا في "مربع التّاءات" هذا، ولا أقفز نحو؛ الفرح/ الفرج/ الفعل الحميم.. و....؟! هل لاحظت؟ "مربع الفَاءات لا يكتمل"!

يستدرك معالجي:

"أعجبتني لعبة الكلمات هذه"!

يستهويني إعجابه، أكمل له:

"سأظل متدلية بخيطي.. دائخة/ دامية/ دون آخر/ دائمة النقص، ساهمة في "مربع الدّال" وترديد أسئلتي الصادقة مع انتهاكي المبكر..."

يسألني فجأة:

"وجابر"؟

"هذا الصبي البلسم.. ابني مؤكد، وأخي دوما، هو من لوّن حياتي بسعادة عجائبية القدرة وهو في الوقت ذاته يلطّخ أيامي بالخذلان البعيد... فهل أتعسُ من هكذا شعور مختلط"؟

ربيع 1997

دخلت لشقتي الصغيرة ووجدتُ جابري يقرأ كتابا باندماج تام، يجعله ينام على بطنه لترتفع ساقاه عاليا، يُحركهما ببطء، رأسه مدفون بين الصفحات، يلتفت فجأة ليجدني ابتسم له:

"سلّاوة! عَفيَة إقْرِي لي شْوَيْ، في كلمات ما أعرفها عَدِلْ عَدِلْ"

أناديه، وأضمه لصدري، يريني الكتاب الملوّن بالأحجيات وقوس منثور بالفرح الطفولي، أتمتم:

"اووه، أليس في بلاد العجائب"!

يرد من فوره:

"خوش كتاب"؟!

أضحك من نصف قلبي، أسأله:

"من وين تعلّمت خوش كتاب؟

يرد خجلا:

"مِنّكْ إنْتِ"!

أعاود ضمّه قربي:

"حبيبي انتْ" وأضحك مرحًا بلا توقّف ويسيل دمعي بهجة.

كنتُ حين أخطو نحو مكتبة ما، أية مكتبة أتعثر بها، أستعد جيدا لاستنشاق عبق النشادر والدفء والاحتواء، أستعد لأصوات خفية ترحب بي، وأومن بأنها أصوات الكتّاب والمؤلفين والشعراء والمفكرين، إذ يعرفون تماما مقدار شغفي بهم وبما ينتجون، ودومًا كان جابر رفقتي على عربته الصغيرة الدفيئة بهدوئه وكتاب يعلّمه الأشكال والأحرف العربية، يظل يقرأ بصوت عال مقلّدًا رنة الأحرف التي ألقّنها إياه!

ينظر لمهرجان الألوان/ الأغلفة الممتدة من الأرض حتى السقف بصمت قليل، ثم ولأنه ذكي كفاية كان يسألني كيف لنا الوصول لأعلى كتاب هناك، ويشير بسبابته الصغيرة نحو الأعلى؟

أخبره بأن هذا الدَّرج المتنقل هو صديق الباحثين عن كل الكتب!

يعود للقراءة من كتاب الأحرف.. بينما أقلّب أنا عناوين جديدة وأغوص بتراب الكتب وأتعفر وكلي سعادة، فيسألني حين أقبض على حزمة من الكتب:

"هذي الكتب زينة"؟

أرد بينما أعيد تقليبها بين يدي:

"إيــه خُوْشْ كُتب"!

فتعلّم منذ أن كان في الخامسة مفردتي تلك.

ويفاجئني اليوم باستخدامها بينما يمتدح كتابه الجديد.

صار جابر محبا للقراءة، وحين يختلي بنفسه في مكتبتي أجده قد شيّد بُرجًا من الكتب كي يصعد عليه ويصل لمبتغاه، نحو عدد من الكتب الجديدة اقتنيتها له وركنتها بعيدًا حتى يكبر قليلا.. كان شغوفا بالورق، مثلي!

هذا الصبي، كان يكبر ويتكاثر بداخلي، وكنت أتّسع له، ويوم دخل المدرسة لأول مرة وجدتني أبكي فراقه لوحدي! أبكي دمعًا غزيرًا بينما أقبله وأوصي قلبي بالتماسك والقوة، كنت أمًا حقيقية رغمًا عني، دمعت عيناه الحلوتان إثر بكائي، لكنني نبّهته:

"لا يا حبيبي فأنا لا أفرح بالدمع في عيون الصغار الشطار"

تعلّمت أن أعيش عالمي باتساع اللحظة، أتمنى وأنفّذ، أدخن التبغ أحيانا لتعديل المزاج الذي انحرف فجأة واكتفي، وألعن القطط بعدما تخربشني، وأعيد ترديد رقم هاتف قديم لم أعد أتذكر لمن يعود.. فمنذ قتلي الأول، لم أكف عن الغناء، فكل تلك الأغنيات السوداء بطعم الحريق، حتى هدهدات الطفولة لجابر كانت تنويعات من البكاء الممزوج بالاستفهام، فصار صغيري ينعس بهَدْهَداتِي الشعبية الحزينة أسرع.

يغفو ملء عينيه الغريبتين عن هذا المكان، فطوبى للغرباء، الذين يرددون أغنيات لا تصلح إلا لمجانين اللـه ممن يبكون أسرارهم البعيدة وأوجاعهم ليلا.. يبكون تكوّنهم الطارئ ونبذهم.

صيف 1999

كان رقم جلوسي في قاعة الامتحان هو 11.

وكان ذلك بعد الثامنة والنصف بقليل، والأسئلة لطيفة ومن الممكن جدا التصرّف معها، لكن أجمل ما في القاعة الكبيرة المتسعة في الكلية ورقم جلوسي الـ11، بأن الهواء المتسلل إليّ من النافذة الزجاجية، هو عبارة عن بقايا الشتاء وتراحيب الصيف الأولى، فلم يكن قاسيًا بل لطيفا للدرجة التي جعلتني أناشده بقلبي "خُذني... خذني..."!

كنت قد أنهيت الإجابة على الأسئلة منذ ساعة، وبقيت مستمتعة بهذا النسيم اللطيف والهدوء الكثيف، تأملت ورقتي.

كتبت أسفل اسمي "سلوى عادل أحمد"؛ ثم دوّنت:

(أنا وردةٌ منبوذةٌ من ربيع كان في بدايته مزهرًا ثم.. خبى)

وحين سَلَّمت الورقة للمشرف على مراقبة القاعة، نظر في وجهي طويلا، ثم لَوى فمَهُ باستغراب وشطب بقلمه الأحمر على ما دونته أسفل اسمي، وأشار لي بهدوء لأن أغادر القاعة دون نقاش.

من قال بانني أريد أن أتبادل حديثا حول ما كتبت وشُطِب بقسوة؟!

خرجتُ من البوابة الكبيرة والنسيم ذاته يرافقني، يحملني، لأنعطف إليك، دون وعي، وها أنا ذا الآن، على الكرسي المنفردْ أعزف تفاصيل يومي، وأنت قابع خلفي.

"بماذا تشعرين الآن"؟

"ضياعٌ لم أعد أجيده.. لكنه ملتصق بي تماما"

"لم كان النسيم اللطيف يسعدك حين كنت في الاختبار"؟

"لأنه أثار بي رغبة للمجيء إلى هنا...

"يسعدك أن تكوني هنا"؟

"يسعدني التكلّم هنا.. بِحُريّة"

"يسعدني ذلك أيضا"!

(أزفر راحة.. وتُفْتحُ ورقة جديدة في ملفي)

شتاء 2007

حين اللقاءات المتباعدة التي نعقدها سحر وأنا،...

سحر التي باتت تَضْمر/ تَذوي/ تَنتهي/ تَذوب، وتختفي في "مربع التّاءات"، كلما اجتمعنا على كوب قهوة وتحلقنا حول مائدة مزركشة بالشمع والدانتيل، نتحدّث بـ هموم آخر العشرينيات بينما نودّعها.

كنتُ أسيطر على اذعانها الذي تُداريه في كل جلسة، أعطيها مما تعلّمت/ قرأتُ ومازلت، ولعلي كنت أعيد ترديد ما أمارسه كي أثبّت في عقلي ليوم قادم مجهول، كنت أرتشف قهوتي على مهل حتى تَبْرد ويستحيل طعمها مربكًا، مزيج من قسوة واسوداد البن وبرودة تشبه حضن زوجة الأب!

بدأتُ في ذاك اللقاء خطبتي التي تتشعب في العادة ولا توقفني سحر على الرغم من ذلك:

يا صديقة طفولتي، الحياة غامضة لدرجة يستحيل معها الوصول إلى القمة، كما يستحيل إلقاء ولو نظرة على سرّها العميق، لذلك، تبدو لنا أحيانا بأنها ليست على استعداد للإصغاء إلى منطقك أو منطقي مثلا، مع ذلك هي مراقب جيد لما نفعل/ نفكر/ نتمنى ونتصرف، فلا تكوني صلدة/ صارمة/ صلبة وصعبة، لا تدوري في "مربع الصادات" هذا وتعلّمي مسامحة ذاتك الفقيرة لخالق هذا العبث الكوني المُحكَمْ/ المنُسّق/ المُتقن/ المُصاغ بجلال "مُربّع الميمات" هذا، وسبّحي له مرارًا وتكرارًا، سبع مرات، سبع وسبعين، سبعمائة وسبع وسبعين.. كما تحبين.

حينها، ستزهرين بالصبر، وسيهدأ زوجك عما يلوثه ويغيظك منه، بل ستجدينه ينجذب نحوك مُزهرًا، وهذا طبيعي جدا.

الحَجَرْ يجذبُ الحَجَرْ، والزّهر يستميلُ الزّهر وكل هذا الانصهار الثنائي بين الشيئين يُولّد ضوءً بسبب العِشرة الغنية بالانسجام، وهذا فعل مُبارك، فعل يشبه الصلاة - كما يقول "المعلّم" - كيف تشعرين بينما تُصلّينْ؟

ذراعاي مفتوحتان باتساع على الطاولة بسؤال ممتلئ بالثقة، تنتبه وتنظر سحر لهما/ لي جيدًا، تسألني عبورًا بصوتها المختنق بالدّمْع والمشكلات والدهشة:

"سلوى! انتِ ما تصلّين أصلا"!

أردّ عليها من فوري:

"صَحيح، لقد كنتُ أخاطب الفِعْل/ الطّقْس المقدّس فيك، ولكلّ منا في هذه الحياة فِعْلَهُ المقدس الخاص الذي يولّد قشعريرة التواصل مع الكون...."

تجاوَزَتْ ماقلته، كما هي منذ تحوّلها "الوَهّابي" خلال الـ 1990، تَجاوَزَتْ "هَرْطقتي" كما أطلَقَت عليها يومًا - مستعيرة المصطلح من بيتها -، وتركَتْ عَقْلَها يسهو في أسرارها التي تنضحُ من عينيها الضيقتين بالكحل، فلا أفهم تفاصيل باقي وجهها المغطى بنصف اسوداد.

طلبتُ فنجانًا جديدًا من القهوة بينما نظرت إلى الأعلى كان القمر صريحا/ صافنا/ صادما/ صديقا للجلسة الحميمة، يراقب سماء الكويت، فلا يُغيّر مكانه أو عادته ولا التفاصيل المُلتصقة بسَطحِهْ والتي كلما حاوَلتُ وصلها بنظري تنتج رسمًا يشبه الأرنب!

اختطَفَتْ سَحَر ابتسامتي المُرسلة للقمر، سألَتْ:

"انتِ ليش ما تتزوجين"؟؟

تسرّب لي من بين حروف السؤال، نقمة على خلو حياتي من الأذى والفرح!

أجبتها بجملة مترابطة/ صلبة وواضحة:

"لن أتزوج، كي لا أَذْوي كما تفعل بك العلاقة مع زوجك، وحتى لا أضطر لفضح خيبتي في حضن صديقتي، فيحزنها تعبي"

لم أعاتب نفسي لأنني جعلتها تجهش بالبكاء، بحيث رفعت نقابها لتغطي وجهها بكفيها.

ربما كان لزاما عليها أن تَنتبه جيدًا كي تحمي ذاتها، ولا تجرحني أبدا، في حين تغيب عنهاالتفاصيل التي لن تعرفها يوما.

توادَعْنا حين تأخر الوقت.

توادعنا ولم أكن متأكدة إذا ما كنا سنلتقي مجددا أم لا.

لكنها أوصتني بأن أعيش كما أحب.

كنت أقود سيارتي الصغيرة جدا بينما أفكر، بماذا أحيا أنا حقيقةً؟

بخدعة دائرية أوهم أيامي فيها؟ أملؤها بكل ما أتمنى من مغامرة.

جرّبت ركوب الخيل.

استمعت للأغاني الحزينة وبكيت، أعدتُ قراءةالكتب التي هزّتني حقائقها يوما، فكتاب "الأجنحة المُتكسّرة" لجبران هو رفيق انتظاراتي في المراجعات النفسية الكثيرة، أدرتُ حوارات متشظية مع أصدقاء على "الفيس بوك" بلا ملل، ابتَدَعْتُ عناوين جديدة لمستخدمين جدد/ أسماء مثيرة كثيرة لأدخل سرًا وأفتق حقائقهم وأكشفهم من جديد، والأقنعة يال الأقنعة الـ تتوالد وتنتشر فأضحك من وراء الشاشات الزرقاء ولا يعرفون!

أمارس هَوسًا في تغيير خطوط الهاتف، وأحسن جمع الأوراق النقدية الغريبة، وأشتم الرسائل الهاتفية المتأخرة عن مواعيدها، أو تلك المتكررة بجنون الإعلانات، وأتلهى بمسح الرسائل الموشّاة بالقلوب الوردية الخانقة، وأعيد قراءة القصائد بأداءٍ تمثيلي ويفاجئني نحيبي رفقة المسامع المطرّزة بالوَلَهْ!

بماذا كنت أديرُ تُروس أيامي فعلا؟

بكل متع الدنيا، بكل المغامرات التي تليق بفتاة تمارس مراهقتها متأخرة بـ 15 عاما!

مع ذلك، لا يفرحني كل هذا التمترس وراء المُبْهِجات.

وحاضرة كرفيقة لجابر في أي مشوار مهم أو تافه يُخْلَقُ من نبض اللّحظة/ التّمني، صوتي عالٍ ونضحك سويا ملء رئتينا.

أعمل بين الكتب معظم الوقت، ورائحة المكتبة صارت توأمي الذي يُغلفني طمأنينة، فتعرّفت بقرّاء نهمين/ باحثين عن حكايا الناس وتجاربهم عبر الكتاب، كل قصص تعارفي تنتهي معهم، حين تصل لنقطة تنتظر فيها كل فتاة طلب الرجل إلا معي، فكل من غادرتهم كانوا ما يزالون يحلمون بالرقص معي نحو الضوء... لكنني أعتذر.

أنسحب/ أتعذّر/ أتلكّأ، خلف عناوين لكتب جديدة، لتبقى مسافة من أمان بيننا.

ولم يزعجني ذلك، ما أزعجني حقا تلك العلاقة الموتورة بـ سالم أخي الذي تركنا متعجلًا/ هاربًا نحو قارة جديدة/ بعيدة وتصلني أخباره عبر أمي تسريبًا غريبًا.

وحين أختلي بجابري ويفلت لسانه الصغير/ المراهق، لسانه الذي لا يكف عن السؤال، وصوته المتحوّل نحو التكوّن الذكوري،

فابتسم واسعًا لعينيه الفاتحتين تماما كما التقينا أول مرة، متفكّرة بحسرة خالصة، قابعة في الأسفل جدًا، كيف لا يُهديني شيئًا من حبه في عيد الأم؟!

كيف لا يطرق بابي حين ترتفع حرارته؟

لايحتضنني كأولِ الناس حين ينجح؟

كيف لا أكون ولي أمره المطلوب للقاء مُعلمه؟ لمن سيسرّب سرّ حبه المراهق الأول؟

هذا التزييف في المُشاهد يتعبني.

ربيع 1998

توقفتُ طويلا عند السؤال:

"لماذا تُغَيّبينْ أمكِ وأبيك عن حديثك معي وعن حياتك.. أين هما"؟

بعد تنهّد وصلني من الخلف حين يجلس معالجي، إذ يبدو بأني تُهت في أفكاري طويلا.. تنبهت.

"لقد اختارا الغياب، فأنا لا أتجاهل أحدًا، وبيننا سؤال واحد وكلمتين، مجموعة حروف بلا مشاعر، مُلحقة دائما بعلامات استفهام كثيرة، علامات تعجّب تستند على ألمها/ ألمي/ آلامهم، وصدّقني، فإن الصمت الذي نمارسه مع بعضنا مدروس الخطوات، لأنه الممر الآمن لنا جميعا، لنتجنّب فوهة حريق تحاول الاشتعال كل مرة.

أمي ابتلَعَتْ الطعم اللذيذ/ الهِبة التي مُنحت لها على حين بشاعةٍ، فكم يُسعدها وإن بَرَعَتْ في مُداراتِ ذلك أن يكون لها ولد/ ذكر جديد كحقيقة وليس أمنية! تعيش كما كل الأمهات في هذا العمر، تنشغل وتتشاغل في بيتها بالسؤال عن سالم الذي لايَسْأل، أو باللعب مع جابر وتكتشف في كل مرة أنها كَبرُتْ كفاية على رعاية طفل يكبر سريعا ويشب.

أمي تخلَّصتْ في الوقت المناسب من جَدتي نصرة، ظلت تخشى أن يتسرب سرّنا الكبير مع خَرَفِها الذي بدأت خيوطه الأولى بالتقطّع/ التقاطع مع الهلاوس والحقائق مجتمعيْن، والحق يُقال بأنني كنت أخشى نوبات غضبها المُفجعة، فقلب جدتي نصرة يُثرثر كثيرًا وتُحاول كما هي دوما الإيقاع بلحظات الاتفاق على الصّمت والتجاوز وتعشقُ تحريك الألسنة باتجاه أمي!

ماتت رغيفية الوجه وارتاحت أمي، تقضي أيامها في البيت بسكون، وبمشاهدة المدبلجات للعربية الفصحى، تعيد تنسيق الأحداث مع "عروس البحار" واستكانة شاي وحفنة مُكَسّرات ورداء بيتي مريح يتناسب وجسد أم لامست الخمسين، لذا، وحين تبدأ طقوسها الماتعة- أسحب "جابري" نحو مملكتي الصغيرة المنفصلة بشِقّة اقتطعتها من بيتنا الكبير، وندرس سويا.

: "الوالد، ما أخباره"؟

"أبي؟ أبـي صار لا يُحسن التعرف إلى "سَلْواه" منذ ذلك الحين، نعم... لا يُحسن التعرّف بي..! بالنسبة له، لم يبدأ الموت والغدر من صراع/ اقْتِتال بين أخوين! بل يوم ذُبِحَ الوطن وذابت مع الدماء السائلة عروبيته/ قوميته التي بها/ عليها تربى وشبّ وكَبُرْ وآمَنَ عميقا بتفاصيلها.

كما القاطرة التي ارتاحت على سِكّتها التي ألفتها أو ظنّت أنها كذلك، حتى مَرّت بها عاصفة هوجاء واقتلعتها من المنتصف، ارتبكت حياة أبي كثيرًا بعدما ضاعت وصلة المنتصف تلك التي تحمل الإيمان بالعروبة والوطن الواحد المتسع للجميع، طارت كل قناعاته.

فأن أي أمل بقادم أفضل لم يعد يَصلح كـ "مُورْفين" يخفف هذا الخراب.

نحن شعوب من خيبات متتالية حتى وإن بدا لنا للحظة أننا "بألف خير"!

لكل منا، وأعني من عاصر الـ 1990، أذاه الخاص، كنا جميعا بلا أي استثناء نُوقد شمعات ملونة لأمل/ مستقبل/ فكرة/ مجتمع

نابهٍ، لكننا نتّفق ولو ضمنًا الآن بأن الشمعة منذ الانصهار القاسي ذاك، كانت قد استقالت من مَهمتها الأساس في بعثِ الأمل دفئًا آتيًا ومستمرًا.

(بعد صمت استطال دون فكرة محددة في رأسي، ساعدني سؤال جديد لانتشال أول الخيط للكلام)

: "صِفي لي حياةُ والدِكِ يا سلوى"؟

"أبي.. يعيش"

يتنفس ويمارس الحياة على مهل، سالم حين هرب نحو "الحياة البعيدة" التي اختارها، كسرَ آخر ما تبقى من صلابته، فتلاشَتْ ثقته في كل شيء،... أبي حزين، فحين ماتت أمُه نصرة، عاد للطفل الذي اختفت أمه فجأة، أرتدّ لحالته الأولى وحيدًا.

كم أحن لتلك الليالي التي جمعتنا به حول موقد الشتاء، بينما يحكي لنا عن الأرواح التي سكنت بيتهم القديم في "حَوَلّي"، بيت طفولته، ليخيفنا ونحن نضحك من مبالغاته، بينما ترتعب جدتي نصرة من تذكر تلك المشاهد وتُسْكته وهي تردد أَعلى تعاويذها القرآنية لتَصْرفَ أذاهم عنها!

تؤلمني الخدعُ الكبيرة التي قدّموها لنا، كم كان مضحكا ومُرًّا حين صَدُّقت في أول مراهقتي بأن العالم كمثل سمكة ملوّنه ملؤها الفرح، أو كأصيص مُورّد بالبتلات اليانعات، أو أن ألوان علم بلادي أقصى البهجات حين يُرفرف احتفالا..... بـ الفخر؟

سؤال معالجي/ صديقي يُلامس أطراف راسي:

"سلوى، ما أكثر ما يُسعدك"؟

"القراءة. الهروب الطيّب نحو ما أنتجه الآخرون وحكاياتهم وتاريخهم ومعاناتهم، قرأت كثيرا يا دكتور، وأغيب الآن بكتاب مؤلم لكنه حقيقي جدا، مع مذكرات "آن فرانك" اليوميات التي وثقت لتجربتها الأليمة خلال الاحتلال الألماني لهولندا... إنها الحرب! الحرب ما تحيل الإنسان الطبيعي لفتات لا جامع له"

عاجلت معالجي:

"أرجوك.. ليتنا نكتفي، تعبت"!

زفر معالجي بهدوء وخيّل لي كأن كفه لامستني، وهمس لي:

"نكتفي ولا يهمك".

صيف 1998

خرجتُ سريعا من جلسة ذلك اليوم نحو الكُلية.

ملاذي الآمن من الآخر.

كان قرص الشمس مثل حديدة دائرية تصبّ غضبها على يافُوخِ رأسي، ولا أدري لماذا قَرَّرت أولًا شراء وردتين من محل الزهور القديم الذي أصادفه كل مرة قبيل مروري لدرسي؟

قبضتُ على الوردتين في لفافتهما الوردية التي اخترت، ووجدت نفسي أبتسم طويلا، هل كان الهواء حقا يُمسِّد على كتفي وأنا أنتظرُ واقفةً في ظلّ المحل بينما تركني البائع ليفكّ الـ 20 دينارًا التي وضعتها على طاولته؟

كنتُ في طريقي لامتحان نهائي.

وكنتُ على عكس الزملاء، أبتهج بيوم الاختبار، لأنني أتحدى بياض الورقة الصامت، أسكب عليها مافي رأسي، أملؤها حبرًا، أطرّزها كلاما ومعلومات وحين يكتمل النقش، أغادر.

أقود سيارتي وأنا أغني بصوت مسموع أغنية نجاة العبقرية اللحن، وأعيد مرارًا "لمن صِبَايَ لمَنْ، شالُ الحرير لِمَنْ.."، أتأملُ الوردتين المرتاحتين على مقعد السيارة، ابتسم لهما، وتَصورتهما كذلك تردان البسمة.. الورد؛ روحٌ وفمْ!

الصيف ساخن كالجمر.

والنزول من السيارة يُشبه التحدي في كيفية الهرب نحو الرّحمة الباردة - قلب البيت - وحين دخلت إلى شقتي كنت لابد أن أمرّ بالطابق الأرضي أولا، بارد بشكل مشجع على التنفس، لكن لا حياة فيه، تلقفتني برودة التكييف حتى وصلت لمكاني/ عالمي، بيتي الذي يشبهني.

وجدت صغيري يغفو بين لعبته وكتابه المدرسي، أقلامه الرصاص المتناثرة، "مَبْرِيّة" جاهزة لنسخ واجبه اليومي.

شاشة التليفزيون تبرق، لتضيء المكان بتحولات اللقطات، أتمعّن بوجه حبيبي، كائنٌ رائق حبيبٌ ولذيذ، كان كما روعة الله، لا تُفَسّر!

مُتَمَدّد مثل دمية، نائم على بطنه يسند رأسه بكفيه، تركته لأحلامه البسيطة، فما الذي سيشغل ابن السابعة في الحلم؟

دخلت لغرفتي لأنهي يومي الطويل بالاغتسال الدافئ والجوع يقرص معدتي، كنت ما أزال أدندن مع "نجاة" أسفل "دشّ" الماء، حين سمعتُ عبر تردّد الصّدى طرقًا مرتبكًا على الباب، ناديت:

"منو"؟

صوت جابر عبر الباب مشدوها بالارتباك:

"ماما... ماما.."!

هَبَطْتُ روحي بندائه لي!

صحت: "نعم ماما"!

بلاتفكير، أوقفت تدفق الماء، ارتديت منشفة الحمام، وجدته ممسكًا بكلتي يديه ينظر بوجهي سألته:

"نعم.. ماما"؟

عيناه قلقتان:

"ماما... تحت تبكي وهي تتكلم بالتليفون"!

ركعت بـ كُلي على الأرض، احتضنته لروحي وشعري بَلَّل

وجهه الذي كان يشبه قصيدة حَيْرى، تأفف من بلل شعري، ضحك بخجل:

"سَلاّو! الماي على وجهي"

عن أي الأمهات كنتَ تبحث في قلقك؟

عن أيُّهنَّ يُزْبِكُكَ تعبها؟

أي الأمهات هي أحنُّ عليك من هذه الدنيا الموتورة بتحولاتها؟

آهِ يا قطعة من عمري..

طمأنته:

"أنت ما تعرف أن ماما نجيبة دائما تضحك بصوت عالٍ وعيونها تدمع بالتليفون وانتَ تظنها تبكي"؟؟

ردّ عليّ سريعا والخوف يتجدد بعينيه الشهلاوين:

"لا لا سلاّوةَ، ماما تبكي صِجْ واللـه العظيم"!

دفعته من أمامي سريعًا وبشعري المبلل نزلنا على الدرج نحوها، نحو مهرجان الدمع الذي كان حقيقيا فعلا، ففي صيف 1998 تلقّت أمي نجيبة خيبتها الثانية، فعبر اتصال عبر آلاف الأميال، أخبرها

سالم بأنه تزوّج بفتاة أمريكية، درست معه، ويطلب - عبر كل تلك الأميال - من والديّ دعواتهم ورضاهم.

سألتها:

"لماذا البكاء وابنك يتزوّج؟"

ابتَلَعتْ دمْعَها:

"مكتوب عليّ ما أفرح في ولا واحد فيكم، أنا أُمكم، لا فَرَحْتْ فيكْ ولا في سالم"!

رددت:

"افرحي الآن، سالم تزوّج"!

كان ردّها حاضرًا، انتزعته من قلبها وقدّمته لي:

"دون شُوُرِيْ؟ وبعدما خلّصْ كل شي؟ لاخِطْبة ولا عِرْس ولا حفلة؟... لا.. وأمريكية"! شلون نتفاهم معاها باللـه؟ وإلا قَرر يعيش في بَلدها؟؟"

وجَدْتُني بعد أسئلتها الستة المقذوفة في وجهي أنا، عاجزةً عن الرد وتفكيك السبب وراء دمعها الكثيف المنهمر بحرقة كبيرة، جابر مستند على حضني، عيناه متسائلتان تراقبان أمي.

تسرّب الخبر إلى أبي بطبيعة الحال، وفي غروب اليوم - كما كل يوم - كنا نجتمع متفرقين، كلّ تائهٌ في ملكوتِه/ نعيمِهِ المُختار، وكأن مخلوقات اللـه تشاهدنا من بعيد، نظارتي على عيني، أقرأ "كليلة ودمنة" لجابر، أبي يقلّب قنوات التليفزيون بحثًا عن قناة لا وجود لها، بالوضع الصامت، وأمي، تبخّرت مع غضبها وصارت أشبه بغيمة تنتظر لحظة جديدة من انهمار، جابر ينصت للحكاية وعيناه لم تتخلصان من قلقهما والسؤال.

همس لي ليلا بينما لبسنا "بيجاماتنا" المتشابهة استعدادًا للنوم:

"سلاوْ، الحين ماما ليش تبكي؟ سالم لما يتزوّج هذا شَيْ مُو زَيْنْ"؟

كيف لي أن أخبره بأننا يصعب تفسيرنا؟ وأننا أحيانا تفرحنا الأحزان وتبكينا الأفراح؟ كل مشاعرنا تحددها مدى استفادتنا مما يحدث.. ضحكت من أنفي، بسّطت الأمر عليه:

"ماما أحزنها أن سالم تزوّج دون أن يخبرها.. كانت ستفرح لو أنه أخبرها قبل ذلك.. فهمت"؟

هزّ رأسه موافقًا، هبط قلق عينيه.. واستسلم للنوم.

ربيع 2003

للحروب رائحة أميّزها جيدًا.

تَعْلَقُ في أهداب حواسي، أشمّها كلما استنشقتُ هواءَ الشباك منذ أسابيع مضت، رائحة معدنية القسوة.

الكويت ترفع حالة الاستعداد حتى "الدرجة البرتقالية"، وأبي - الذي بدأ بالعودة إلينا - والجلوس معنا بكامل انتباهه، أخبرنا بأن اللون البرتقالي يعني رفع حالة الاستنفار حتى أقصاها!

ولاأدري لم شعرتُ بالحنين حتى أقصاه لـ سحر؟

كنت أريد تعويض غيابها عن الحرب الكبيرة الأولى، تلك التي جابهتُها وحيدةً دون سلاح!

لكن سحر تُتقن الغياب دومًا.

هاتفها لا يرد، وهاتفها حين يُفتح، يرد عبره صوت أجشّ لايشبه الرهافة في حسّها، وحين يفتح يُغَلق من فوره بعد أن يخبرنـي:

"سحر مشغولة ولن ترد على أحد"!

خسارة يا صديقتي.

إن العُمرَ الذي تعيشينه مُرّا، يَنفَدُ منكِ خَلف هذا الطيف المخنوق بلحية/ المشنوق بالقسوة ولن يهديك سوى الخسارات.

كل الإذاعات والمحطات ترفع استعدادها بانتظار انتهاء (المُهلّة)، أي عاقل يُمْهِلُ الظالم؟

أمي مرتعبة عيونها، تحتضن ذراعيها جيدًا نحو صدرها، لم تكتفي بالاستماع للنشرات، بل تراقب عيون مذيعي الأخبار وتسرّ لـي:

"شوفيهم! خايفين ترى.. والـلـه الجاي ما يطمّن"!

وتـحوقل بلا توقف.

أعيد الاستماع لما قالته للتو.

لِمَ قد يَخاف المذيع القابع خلف الشاشة في بلد بعيد جدا عن خارطة اقتتالنا؟!

هَلْوَسات أمي انعكاس لخوفها الشخصي، أمي التي تَجَبّرتْ حتى على الإسمنت المسلّح الذي لا يُخترَقْ عادةً ودَقّت مسامير ها الحديدية بمطرقة صَدئة لتعلّق سجادة ثقيلة على شبابيك بيتنا كمتاريس تحمينا من تكسرّ زجاجها في يناير 1991، حين أُعْلِنَتْ حرب تحرير الكويت آنذاك.

أمي والخوف متلازمان/ متفاهمان جيدا.

وسالم، اكتفى بإرسال كلماته/ نصائحه عبر برنامج المحادثة، لجابر وتصرّفه أدهشني حقا، فيما أسعدني تعاطيهما لحوارات "ماسينجرية"(*) مطوّلة حول القادم من تصريحات لصدّام وأمريكان، وللشعوب العربية التي قررت أن تتحد/ تتفق فجأة ولأول مرة على كُرهنا نحن!

كنا "خُدّام العدو الأول" ثم "المتآمرين الخونة" ثم "عَديمي العروبة"، فقط لأننا فتحنا حدودنا للعالم وصرنا معبرًا للعراق كي يسترد طُهرَهُ، ويستأصل الرأس العفن منه.

لم يكن خيارًا.. لأي أحد.

(*) الماسنجر: تطبيق محادثة شاع في تلك الفترة.

كنت خلالها أتبصّر بـ جابر مطولًا وهو المرغم - معنا - على تجربة مهزلة سياسية كبيرة وهو بعمري نفسه آنذاك، فهل نُورّث لأبنائنا بلا سيطرة/ سلطة كل أحمالنا، نسحبهم للدائرة الأولى، التي تركت علينا علاماتها القدَريّة علينا؟

نحن نذوب في هذه المرحلة سويا في معجم من المترادفات لكل معانْ القلق والترقب.

فَجْرًا..

كما بتوقيت أمريكا الذي يُلائمها.

دَقّت ساعة دَحْر الطاغية، كنتُ تحت "دش" الاستحمام، وقد تَرَكْتُ أمي مُسَمَّرة أمام شاشة "أبوظبي"، بمربع صغير في زاوية الصورة كتب عليه "انتهاء المُهْلة"، خمس دقائق مُبللة بالماء والصابون، تغيرت خلالها العبارة إلى "بدء الحرب"!

رفَّ قلبي.

تذكرت تندّر جدتي نصرة، وردّها علينا حين تنادينا ولا نستجب سريعا، بل نصيح من البعيد (بَسْ خَمْسْ دِقايِقْ يُمّه العُوُدَه)(*) تهز كتفها وكفها سخرية، تهمس:

"بخمس دقايق تنقلب الدنيا وتطيح عَمايِمْ"!

يااه كم أحسدك يا جدتي نصرة، فلم يعد هناك ما يثير خوفك/ قلقك ولا حتى غضبك، بينما نحن الأحياء/ الأموات ننام ونصحو، نأكل ونمارس حياتنا الفطرية، غارقين بالخوف - وإن لم يَبدُ - مرتعبين من لعنة "الكيماوي" والصواريخ، نظل نتخيّل أشكالا متعددة/ متغيّرة لميتاتنا المحتملة، بالقصف، بالصواريخ، بالغازات

(*) يُمة العُودَة: نداء الأحفاد للجدات في المجتمعات الخليجية، تعني الأم الكبيرة.

المهيّجة للأعصاب، يال الموت ضحكًا وخبلًا!

حرقًا أم تكسيرًا أسفل أكوام من الاسمنت، وحيدين بين الركام وبكثير من الآلام حتى النهاية!

إننا يوميا - كما فعلنا في 90 - 91 - نعيد التأكّد من صلاحية الأطعمة المخزّنة والمياه النظيفة ولاصق النوافذ والنايلون وكمامات الفحم بيتية الصنع!

والدولة، أعفتنا مع أول انطلاقة لصافرات الإنذار المقيتة، أعفتنا نحن النساء من وظائفنا لأسبوع كامل، ربما، كي نطمئن للموت "مستورات" بين أهالينا إذا ما انهارت منازلنا علينا وصرنا أشلاءً، فأي ساتر لنا من عدسات التلفزة ولمسات المسعفين ومقابر الدفن الجماعي!

***

صاحت بي عاليا صديقتي عائشة العمانية بعد أن آذاها طعم التشاؤم في كلماتي كلها:

"يكفي! لن تميتكم صواريخه البالية، ها أنتم في اليوم الثالث من الحرب عليه، ولم يفلح أيا منها"!

صدقت عائشة التي هاتفتني من عُمان، عائشة زارتني في المكتبة حين كانت في زيارة لأقربائها في الكويت، وابتاعت أكثر من 60 عنوانا دفعة واحدة، وطلبَتْ رقم هاتفي بعد أن تحاورنا لساعتين في ذلك النهار، قلقت عائشة العمانية على سلوى الكويتية، فاتصّلَتْ.

ارتخيت بعد وجبة من كلام مخنوق.

سحبتُ ديوان شعر كُتِبَ على كَعْبه الرقم 3، من مجموعة لـ فاروق جويدة، شرعت أقرأ بصوت مسموع، قلت ربما تكف الغارات من حولي، ربما تصمت أصوات مذيعي النشرات ويكفّ المحللون عن استعراض تنبؤاتهم، وتهدأ الشائعات وتختفي ولو قليلا تعليمات لبس قناع الغاز الذي لم يقتنيه أحد!

كنت أقرأ... بصوت مُمَسْرح:

(الشمس إذا سقطت يوما/ ستعود وتُنجب ألف نهار، أنا ما حزنت

على سنين العُمرِ/ طال العمر عندي... أم قَصُرْ، لكن أحزاني على الوطن الجريح وصرخة الحلم البريء المنكسر/ وغدًا أحبكِ مثلما يوما حلمت دونِ خوف، عار علينا إذا كانت سواعدنا قدّ مسّها اليأسُ فلنقْطَع أيادينا....)

وعويل صافرة الرعب ينطلق، يشتت الحروف، نحو... الصمت!
لا أدري كمْ مرّ علينا، لكني وجدت "جابري" ينظر نحوي بترقب، انطلق يسأل:

"سَلاّوة، باكر عيد الأم، شنو نشتري لأمي"؟

دارت الإجابات وتناسلَتْ على باب حنجرتي حتى اسْتَدْرَكْتُ:

"يا جَبْرْ قلبي، الدنيا تختنق بالحرب والعَجاج البرتقالي ولا مجال للخروج والتسوّق، لكن...

ماذا لو شاركتني صنع كعكة لذيذة احتفالا بأمي"؟

وتماما مثل أبناء جيله، ابتسم للفكرة وصاح دون تردد:

!"Yes"

قفزنا لنتشارك أركان المطبخ، نُحضر كعكة عيد الأم على صوت راديو يَبثّ آخر تطوّرات الحرب على الطاغية، بغداد تُقصف، وأم قَصِر حُررت، والتوغّل صار من بعد "البصرة" حتى أطراف الوسط، ونحن هُنا نُعِدّ لاحتفال صغير، وكنتُ الأم المَخفية للمرة المليون، الأمّ التي لا يَعْرفها أحد ولا يُعايُدها في يومها أحد، انتبهت لجابر يُغني مع المذياع؛ (اللـه اللـه يا أرض أهلي وأجدادي، اللـه اللـه يا أفراحي وأعيادي... اللـه اللـه، يا كويت اللـه..)(*)!

ورائحة الخبيز تنتشر في البيت، تبدد القليل من الاختناق بالترقّب، كذلك صافرات الإنذار تقلّصت لثلاث مرات في اليوم نهارًا، ثم تجهّزنا لنحتفل - سِرًّا - بأمي.

تذمّر أبي قليلا:

"الدنيا حرب، شْلُونْ نْطَفّي التليفزيون"؟

أجبته بعقلانية يُحبها:

"بابا، التحليلات العسكرية والمشاهد العنيفة تتعب القلب، فسحة صغيرة كي نحتفل بالفرح ولو قليلا.."

(*) أغنية وطنية أنتجت خصيصا لهذه الحرب، شاعت في الإذاعة والتليفزيون الكويتي اسمها "وطني حبيبي".

جابر يستعجلها، يشير لأمي نحو الكعكة التي شاركَ بتزيينها.

أنظر لاسمها بخطيّ (ماما نجيبة مَبروك عيدك).

أغمضتُ عيني للحظات.

ثم فتحتهما لأراها وهي تحتضن "جابري" لصدرها بنصف حنان، فأُصْلَبْ في تلك اللحظات بين سؤالين، هذا حفيدها واقعًا، ألا يَرِفُ له قلبها؟، وهو ابنها تحايلًا، ألا تتقن تمثيل محبتها؟

ينفلتُ ابن الـ 13 نحوي، بقربي يقف، يتابع:

"يالله يبا خل نقص الكيكة"!

قبّلنا رأس أمي جميعا، ثم بدأنا بتفريق الحصص، تربّعت جلوسًا على المقعد، وبحضني صحني آكل وأتفكّر بصوت مسموع:

"الاحتفال بنصف حرب مجهولة النهايات.. مهزلة"!

يرد أبي:

"هل من حرب معروفة النتائج"؟!

تُعقّب أمي:

"إي والله، على رأيك"!

ثم ساد الهدوء في الجلسة، هذا الهدوء المُفقود منذ أيام من الشحن/ الشجَنْ والأعصاب المهدرة في الكلام الكثير والتوقعات والصافرات والركض اللاواعي باتجاه السرداب!

أرخيت جسدي ولاصوت سوى الملاعق والأكواب، لكن سؤال هبّ من جحيم الحرب وسَّع تفاصيل ذلك المساء، انطلق جابر يسأل:

"يبا، سولف لي عن الغزو"؟؟

صافرةُ إنذار صدحت في رأسي فجأة.

من أثلج المسافة بين فمي وحنجرتي؟

من أسقط الساتر عن سَوْءة الوقت وأربكنا جميعا؟

عينا جابر تنتقلان بين مسحوق الصمت الذي انتثر فجأة وضبب المكان فهَزَمَنا بحضوره، عيناه الفاتحتان بلون الرماد تبحثان عن الحقيقية الغائبة عن سنواته التي تفتّحت مؤخرًا، كنتُ أتشَرنَقْ في

مقعدي، وأفكاري التي تلاصَقَت/ توالدت/ توالت ثم تكوّنت مثل براعم إسفنجة امتصت رحيق الكلام، وتُهْتُ في "مربّع التاءات" طويلا... وحين لاح العَطَبْ جليا على وجهي، لأبي، سَحَبَ بساط الارتباك، دلَقَ العبارات بهدوء أعرفه:

"في الثاني من أغسطس، اختفت الكويت من الخارطة، ما عاد لنا/ لها وجود دولي، برغم اعتراف العالم بنا، الغزو كان كله قلق وترقب وقتل وشهداء، عدم أمان مخيف، وهذا كله كان كفيلًا بالتوتر العالي لمدة سبعة أشهر يا يبا.."

صَمَتَ أبي قليلا، عاد جابر يسأل:

"شفتوا الجنود بعيونكم"؟!

ردّ أبي ضاحكا:

"طبعا وكَلّمْناهُم... سبعة أشهر مو شْوَيّ"

وددتُ أرد عليه بصوتي (لامَسونا ولامَسْناهم، كانوا حقيقة كبيرة مُرّة، حقيقة لن تغيب ما دمنا أنت وأنا بالقرب)!

تنودُ والدتي في جلستها، تخفض رأسها للأرض، تقرأ آيات من القرآن بصوت يَعلو على أسئلة جابر، تدخّل أبي ينهي الأسئلة:

"ما حدث في 1990 ينتهي الآن في هذه الحرب، لذلك، نحن نترقّب على أمل كبير بالخلاص... لنفتح التليفزيون الآن"!

أنهضُ وأفتحُ شباكًا لهواءِ آخر آذار، علا صوت الصافرة بعد دقيقتين، تحرّكنا جميعا باتجاه السرداب، أمسّد على شعر جابر الذي استلقى إلى جانبي، ننتظر تقريرًا رسميا حول ماهية رأس الصاروخ الآتِ من الشمال!

في صباح اليوم التالي، شربنا حليب الشوكولاته جابر وأنا، حينها نصحته، اسْتَعِنْ بكتب التاريخ من مكتبتي، ستعرف الكثير من التفاصيل عن "الغزو"، لاتسأل، انبش في الكتب، وسأساعدك حين ينقصك أي شيء، أعدك.

9 أبريل 2003

على رسالة نصيّة فتحتُ عَيْنيّ على اتساعهما، ومن الدكتور يوسف/ مُعالجي:

"تهانينا، سَقَطَ الصّنم"!

دارت في رأسي التساؤلات.

هل كنت غائبة بين الأوراق والكتب كل هذا الوقت حقا؟

هذه الرسالة وصلتني منذ ساعتين وما انتبهت!

لملمت حقيبتي، أقفلت المكتبة، واتجهت لسيارتي، أدرتُ المذياع، كل التقارير الاخبارية صوتها عالٍ بالانتصار والمفاجأة والرهبة والخلاص، تجمُّدت في مقعد سيارتي بلا حركة.

المذياع على مؤشر الـ بي بي سي العربية، وقد هبطت الشمس،

حلّ المغرب ولازلت في مقعد سيارتي، شباكي مفتوح على هواء صار أكثر خفة.

ما كنت وحيدة هاتين الساعتين، كنتُ مع كل رفرفات الفرح المحلّقة من تلك الأصوات العراقية المغلوبة على بكائها/ حزنها/ انتصارها الذي انتظره العالم طويلا!

فما بين الـ 90 والـ 2003، تَخَلَّق ونما وَلدٌ صار الآن مراهقا، دون أن يدري بأنه ذرة من فجائع البطش الذي كان.

الهاتف بين يدي، رسالة معالجي تضيئ من جديد، (سلوى؟ ما أخبارك؟)

أنتبه هذه المرة، وأتصل به.

قلت له:

"هل تهانينا، هي فعلا الكلمة الأكثر ملاءمة لكل هذا العبث"؟!

أجابني:

"ربما قد خانني التعبير إذن"!

سألته:

"سأمرّ بك الآن، هل يمكنني ذلك"؟

أجاب من فوره:

"مكانك وعيادتك، تفضلي".

حين دخلت العيادة، وجدتها شبه خالية، الناس تحتفل بالحرية من جديد، تخفف العالم من طاغية كان يحمل منجل الشر ولا يهاب.

ابتسمت للدكتور يوسف، أخبرته:

"أنا بمزاج شبه رائق، لذا سأحكي لك عن جدتي نصرة"!

ضحك مندهشا، واستراح على كرسيه ورائي.

بدأت:

"نصرة، عجيبة من عجائب الكون! وجهٌ مدّور صغير، كرغيف خبز أسمر ماكولةٌ أطرافه، متغضّن بالتجاعيد، تلفتك فيه الأخاديد التي شقّت لنفسها فيه معابر ملتوية، كلها علامات تركتها التحولات الروحانية البغيضة تجاه الآخرين، عليها.. ومنذ فتحت عيني عليها، كانت إنسانة قديمة جدا، متداعية، بل إنها تشبه إلى حد كبير بيتها الذي يَسْكُنُ ذاكرتي،... فهل تصدّق بأن لها رائحته نفسها"؟!

كيف لا.. فنحن فعلا نشبه بيوتنا.

قالت لي صديقتي ذات زيارة يا سلوى أنتِ تشبهين شِقّتك، بل أنت كلها! ضحكت يومها من الملاحظة، لكني حين خلوت بنفسي تأكدتُ بأنها كانت صادقة.. فعلى الأقل، هذا الجزء المقتطع من بيت أبي، لا يشبه بيتهم، بل تفاصيله تخصّني وحدي.

سَهَمْتُ بعيدا حتى نبهني صوت معالجي:

"لنعود لجدتك، ما اسمها"؟

أغمضت عَيْنيّ وقلت:

"نَصْرَه"!

انتصرت علينا جميعا بقسوتها، تلك التي كانت سيدة صَلدَة، شيء يشبه المعدن حتى برائحتها، رأس عنيد متحكّم ولسان كالمبُرَدْ يُحسنُ حكّ/ تنعيم زوايا النوايا الناتئة للتو، يغيّبها... يعميها/ ينهيها!

كان الطريق المُفْرِخ يُقطعُ علينا في طفولتنا/ مراهقتنا، بسببها، يغيب الأمل حتى بتحقيق مطالبنا الصغيرة المتناثرة من أفواهنا ببهجة الصغار الذين ينوون إدخار مصروفهم اليومي لاقتناء خيمة لعب، دراجات هوائية زاهية... وبنظرة آمرةٍ لوالديّ، تُفقَعُ بالونة الأمنيات الكبيرة التي نفخناها بالرجاء وانتظار العيد، تندُ أمانينا كلها بـ لا.

نستنجد برأفة بابا، وعيوننا علامات استفهام، تجيب هي باستفهام أعلى:

"ولِيْشْ تشترون أصلا"؟!

حتى صرت أنا، أُومن بأن السؤال في كثير من الأحيان إجابة!

يسألني:

"ووالدتك، ألا تتدخّل"؟

أجيب باستفهام جديد:

"ولماذا تتدخّل"؟!

نغيب في ضحك مُرّ، ثم نصمت طويلا.

أبادرهُ أنا:

"نكتفي"؟

بدهشة جديدة يودّعني:

"نكتفي"!

أحببت السنوات منذ 97 وما بعدها.

لأنني كنتُ أنضج على مهل، أتعثّر بمشكلات كنت أظنّ بأنني قادرة على حَلّها، فأن تُمسك بتفاصيل حلمك الصغير وتُنجِزْ أولى خطواته يعني الكثير في ذلك العُمرْ.

شيء يشبه أن تتشارك وكل أعضاءك لتعيشوا كل الأدوار دون أن تستأذن قلبك، كان يحدث لي - خلال دراستي - شيء عظيم يعيدني للحياة باستمرار!

لأنني كنت مستمرةً في بحثي عن شيء ضاع مني في سواد ليل بعيد، ومتأكّدة الآن بأن الخوف ليس في قائمتي صرت شيئًا مرنيًا ربما، بعد أن كنتُ الضمير الذي تتحدّث عنه المخلوقات كثيرًا لكنهم لا يستخدمونه في عباراتهم، كنت "ثؤلولًا" زائدًا عن جلدهم لكنه ملتصق بهم رغمًا عنهم، متلصق ببشاعة يرونها لوحدهم.

لكنني في تلك السنوات كنت أدرس علمًا أحبه وأهتم به.

أتفاعل مع ترحيب الحياة بي، أستنشق الكتب ورقة ورقة، فكرة فكرة.

يسألني دكتور يوسف/ معالجي:

"لماذا؟ ما الجديد يا سلوى"؟

: "لا أدري تحديدًا، لكني حين أصحو من النوم أشعر بأن الشمس تنبت في صدري لا في السماء"!

يسرق مني شعوري بسؤال:

"تحبين"؟!

دارت الكلمة في بياض سقف العيادة، دارت كثيرًا وترنّحت وذابت حين اصطدمت بالجدار،... كنتُ ألاحقها بعينيّ حتى أحياها صوته من جديد:

"سلوى؟ أنتِ تحبيّن"؟؟

لا أدري لمَ تلبّسني غضب الكون كله عبر أغنية!

قضمت أظفر إبهامي الأيسر.. أجبته:

"كنت هنا لأخبرك بأمر جديد! أريد أن أدخّن؛ فرائحة السجائر تثير شيئا في العمق، وقد بدأت منذ فترة التدخين، لكن.. ارتباك يغمرني حين أفعل في الخفاء.."

أستفهَم:

"رائحتها تثير شيئا مفرحًا.... أمْ؟؟"

استبقته:

"دكتور؟ هل من الممكن أن يولد شخص بقلب ونصف؟"

وصلني صوت زفيره.. وبقيت أنتظر.

أجاب بصوت غاب عنه الألق:

"فعليًا لا، لمَ هذا السؤال"؟!

فُتِحَ فمي على سردٍ مُتّصل:

"حينَ وُلِدْتُ، شعرتُ بأن أخي سالم يحبني جدًا، وأنه قد وُلِدَ بـ قلب ونصف! كان يرعاني كل الوقت، جيدًا، ينظر لبؤبؤ عيني بفرح! يحميني من قسوة/ نظرة جدتنا رغيفية الوجه، ومن تعب أمي مني، ومن سيطرة أبي على هدوء البيت، كنتُ لعبته الأثيرة، كنتُ "سَلّوْ" البنت رفيقة الولد "سلّوم" في لعباته التخيلية، وكنا نمثل "دايسكي" و"هِيكارو"(*)، ونغني مع الراديو أغنية مضحكة "مبروووووك، مبروووووك، جالك ولد"، وننهار ضحكًا يشبه البكاء، بعدها نتشارك في صحن هريسة الـ"أوت ميل"(**) الذي تعدّه لنا أمي.

(*) **دايسكي وهيكارو**: أبطال المسلسل الكارتوني الياباني الشهير "غريندايزر"
(**) **الأوت ميل**: الشوفان.

فلماذا حينما.....

استدرك:

"حَصَلَ ما حَصَلْ لم يكن في البيت.."

صحتُ به:

"بل كان! كلهم كانوا! أتذكّر شكل وقفتهم، ألوان ملابسهم وكأنني أراهم الآن، متكدّسين على باب غرفتي المُشَرّع للعبث في تلك الدقائق.... لا أدري هل كانت دقائق؟"

سالم لم يحميني.

لم ينهرهم حتى..

كان وجعًا مضاعفًا وزمنًا مضاعًا مختنق بالآاااخ!

(دموعي حارقة تسيل)

***

سؤاله:

"سلوى، بماذا تفكرين الآن"؟

: "بأنني أتكلّم عكس اتجاه الريح.. لذا، سأنهض وأغادر"!

: "نكتفي عزيزتي... تفضلي".

صيف 2006

كنت أواعد نفسي/ وطني بالطيران تحليقًا على سطح غيمة رائقة بمجرّد أن يسقط "الصنم"، وينتهي/ يختفي معه التهديد/ التلويح بمنجل الشر ذو النصل الموجع من جهة الشمال، وكنتُ أظن بأن الكويت ستتحوّل لـ"فيغاس" صغيرة تفيض بالمرح والألوان والخير و... البدء - فعلا - من جديد!

سنشير لدولة تحتضن بكامل أمانها الآن كل أبنائها و"تدلّلهم" تعويضًا عن كل ذلك القلق الذي لم ينته بـ 1991، فتأملنا بـ"السقوط" في 2003 بما يحقن أحلامنا المؤجلة بالتحقق ويؤطرها بقوس قزح صافٍ تحرسه الملائكة!

حَجرٌ صغير كان قد أُلقي في بركة اسْتَمْرَأَتْ السكون.. فثارت لها الترددات.

الضيق من عبثية الأداء والتنفيذ علا كلامًا لاذعًا عبر - تدوينات- الشباب في المواقع الإلكترونية وفاضت الشبكة العنكبوتية بجنونها بـ"البرتقالي(*)" الذي غطى الشوارع والتلفزة والحوارات والوعود والأمنيات والنكات، "برتقالي" كالسيل الهادر الذي وجد لاندفاعه منفذًا صالحًا وجرَّب إرباك المَشاهدَ المطمئنة كلها، طغى اللون الجديد ونثر رائحة غيّرتْ أجواءنا استحسانا، وجعلتها جديرة بالتماهي مع أفكارها.

وجابر ينقل لي التفاصيل كلها، حواراتنا طويلة ملؤها الحرارة لقادم يتسم بالعدالة، كنتُ فخورة بهذا الابن/ الأخ الذي ورث عني شغفي بمقارعة الإجابات وعاديتها بمزيد من الأسئلة الملوية العنق لفضح القديم وربطه المخبّأ بالآتِ المَعيشْ!

جابر وأصدقاؤه، أنا ونصف الكويت وخروج شبه يومي كي تَنْظف حياتنا أكثر.

(*) **الحركة البرتقالية**: حركة سياسية شبابية عفوية نشأت في فضاء "الإنترنت" في ظل المدونات في عام 2006 نشأت كردة فعل على الأحداث السياسية الساخنة في تلك الفترة وكانت أهم مطالباتها مكافحة الفساد عبر تقليص عدد الدوائر الانتخابية من 25 إلى 5 دوائر، لذا أطلق البعض على الحركة "نبيها 5"، وبناء على هذه التظاهرات التحق 29 نائبا كويتيا دعما لمطالباتها وتحققت الـ 5 دوائر.

كنتُ أســتعيد استذكار حكايات التاريخ حتى أنني فتحت مكتبتي للاســتزادة بعد التظاهــرات، لهؤلاء المتمرديــن الصغار، جابر ورفاقه.

كنتُ أقول لهم:

"الوعي أعلى دومًا من الفعل السياسي"

فحقق هذا التوتر "البرتقالي" النبيل ما نادى به، لذلك كنت أنا مثل زهرة بللها الندى بعد جفاف الخيبات الطويلة، حينها لم يقلقني أن يُنشيء جابري مدوّنته الشخصية ليتنفس عبرها هواءً أخف!

أسميناها (هواء نظيف)!

معالجي يسأل بصوت رحيم:

"لأول مرة تطلقين على نفسك وصفًا حلوًا، على الأقل أمامي، هل كنتِ فعلا مثل زهرة"؟

: "نعم! زهرة بللها الندى، رأسي عالٍ وقلبي ممتد لآخر المدى يحصي الـرؤوس المتظاهرة/ الطامحة لوعي أعلى، ويورقُ بالاختلاف.."!

هل كان دكتور يوسف يصفّق خلفي فعلا؟ أم تصوّرت بأن هناك من يشجّع خطابي القصير هذا؟!

"لكن....."

"ها؟ ماذا؟"

"سحر الغائبة اتصلَتْ أخيرًا، بينما نحن نغرق في نصف المعمعة الجليلة، سألتني عبر الهاتف، أينك؟

أخبرتها باني "أتظاهر بفرح"! ضحكَتْ من أنفها وردّت؛ كلنا نتظاهر بالفرح، عموما، حين تفرغين من فراغك، اتصلي بي!"

سألني:

"هل اتصلتِ لاحقا"؟

"لا... أقْفَلتُ الهاتف، ورغبتي".

خريف 2009

برسالة نصيّة كتبَ جابر لي، (سَلْوى، أبشرك! قبلتْ في الجامعة هندسة)

هل كنت في كامل حواسي الفَرِحَة؟

أتذكّر.. ماذا أتذكّر؟

حوّلت الرسالة ذاتها لـ دكتور يوسف، وجدتني أنقل له البشرى قبل أمي وأبي، فهذا الشاب المجتهد "أبو عيون شهلا" سينضم هذا الخريف لطلاب الهندسة، ابني مهندس مستقبلي يا الله.

والدكتور يوسف سألني عبر سالة بكلمة واحدة وأيقونه وجه باسم:

"فرحانة"؟

همست لنفسي: "فرحانة"

ليلا، كانت أمي نجيبة بصوتها العالي تتصل مع سالم، تهديه البشارة بقبول جابر في كلية الهندسة، وعلى نصف ابتسامة ولا أدري لماذا هبط منسوب الفرح وخبا اشتعالي الذي كان أول النهار- غادرتهم بـ تصبحون على خير.

بعد ليلتين، شعرتُ بحنين مفاجئ للدمية الأثيرة/ الأنيقة التي لازمت مراهقتي الأولى، اشتقت بشكل مُلِحّ لـــ "باربي"، ففتحت الخزانة العلوية - مكان أشيائي الحميمة - وأنزلتُ كما الطفلة التي تبهجها عرائسها المزركشة، حزمة من مقتنياتي الرشيقات وطافت بأنفي روائح بعيدة.

بعد ليلتين تقريبا عُدْتُ لعادتي القديمة، وزُّعت الدمى السبعة على أرضية غرفتي، تمدّدت بالمنتصف، وكأنني كنت بحماية عرائسي البلاستيكية، أستلقي بينهن مثل مُحتَضَرَةٍ تنتظر أن تُرفعَ بأمرٍ إلهي لا يحدث!

حين هدأتُ قليلا..

بدأت بالتحدّث إليهن، دَلَقْتُ عليهن حيرتي كلها، سألتهن:

"أتراني أتعالج حقًا - أتعافى فعلًا، أم يزداد الارتباك باعترافاتي لمعالجي"؟!

طُرِقَ بابي بهدوء متردد.

دخلت أمي بوجه ذابل لايحتمل أي تفسير، نهضْتُ من وسط عرائسي قفزًا، وسط دهشتها، سألتها:

"خـير"!

ممسكة بيدي، سحبتني نحو سريري، أجلستني، وعيونها ملتهبة بالتردد:

"صديقتك سحر.. عطَتِكْ عُمرها"

زادت وكأنها تؤكد لي معلوماتها:

"اسمها أعلنَ في النشرة قبل قليل..."

تركتني في جلستي المتجمدة على سريري وهي تُحوقل وتستدعي الرّحمة الإلهية كي تشملنا جميعا.

حوّلت نظري للأجندة الرابضة فوق مكتبي، وضعتُ إصبعي على تاريخ اليوم، همست:

"3 يوليو 2009، تركتني مجددًا وللأبد يا سحر، وأيضا من دون وداعٍ أو داعْ"

سحبتُ كرسيًا ومَدَدْتُ يدي للخرانة العلوية، أنزلتُ هذه المرة

علبتي المعدنية التي تغصّ بالقصاصات الورقية.... استللت رسالة خطية وصلتني من سحر، عمرها الآن 19 عامًا.

أرسلتها تلك المراهقة الهاربة مع أسرتها للسعودية رفقة شاب دخل للكويت في نوفمبر 1990، وتركها بين يدي أبي، يومها قرأتُ الطفلة المرتبكة فيها، وتجاهلتها.

بماذا كان يمكن أن أرد عليك/ على رسالتك يا سحر؟

بيتكم كان خاويًا، سُرقَت ممتلكاتكم وسريرك الأبيض والدانتيل في ليلة شديدة السواد بعد أن انتبهنا نهارًا للعلامة الحمراء الفاقعة التي تركوها على بيتكم "إِكْسْ"(*).

فالأحمدي لم تكن منطقة متوارية عن الأنظار أبدًا كما بدا للبعض، لم تكن فارغة، لكنها ليست معمل للمقاومة ولم تكن مشتعلة بالبارود، كما كيفان والجابرية(**)، فبيوت الأحمدي كانت تفرغ مَرْحَلِيًا من ساكنيها، لكن مناطقنا كلها في تعاضد عجائبي، فماذا أكتب إليك يا سحر غير مشاهداتي من وراء الشباك؟

ما الذي غيّر الأحوال سوى مسافر قَدِمَ دون حقائبه، بل عبر رسالة ورقية وتساؤلاته الملتفة بألف غطاء كي لايؤذِ حامل الأمانة ومُسْتَلِمْها؟

(*) علامة أكس بالإنكليزية كانت تترك على جدران البيوت الخالية في الكويت خلال الاحتلال كعلامة متاحة لسرقتها.

(**) **كيفان والجابرية**: كانتا من المناطق الواقعة في نطاق العاصمة والمشتعلة بالمقاومة الشعبية وبالتالي الحضور الأمني الكثيف للمحتل الغاصب.

رسالتك تلك يا سحر، كشفَتْ لي - في حينها - الفقد من الجانبين، وقد ختمتيها بأهزوجة صارت يومها سرية/ خطيرة إذ رفعتِ منها اسمها؛ "وطني سلمتَ للمجد"، وعلم الكويت مرسوم بزاوية الورقة الشفافة وبقلمك الحبر وقد استعضتِ عن الألوان بفكرة ذكية هي النقاط والخطوط لتميّزي الأخضر عن الأحمر.

حين عاوَدْتُ الآن قراءة رسالتك "التِّركَة"، هبطَ قلبي، عُدْتُ أنا الصغيرة التي تمسك بالمثلجات ولا تأكلها حتى تسيل على كفها ولا تنتبه، فهل كنتُ شبه نائمة، أم نِمْتُ عند تلك التفاصيل الصغيرة التافهة المرتبكة بالغبش واللارغبة بالاستدعاء، بحيث جَمُدَ الزمن؟!

أجهشتُ في البكاء طويلا، خاطبتكِ:

".... ولتَعْلَمي بأنني لست غاضبة من غياباتك المتكررة، لكني حانقة جدا على جبل القسوة والبشاعة الذي قبلت الزواج به، وقَتَل أمنياتنا التي طرّزناها معًا، خنق تساؤلاتنا ومنعكِ من الضحك والصياح فرحًا، حرَّم عليك المُتَعَ كلها، حتى اختار جسدك هذه المرة الهرب - تبرزخًا - في قلب اللـه!

ربيع 2007

لم يكن أحد يعرف بأنني أزور معالجًا، متخصصًا، صديقًا حقيقيًا/ بئرًا عميقًا.

دكتور يوسف إنسان يُنصت جيدًا لهذياني العالي الصوت و.. يستمع.

يتبادل معي رفرفات فرحي قبل انكسارات حزني، يتذكّر مواعيدي المهمة وينتبه لتحولاتي كلها.

من كان ليهتم بما أفعله كي تتحسن حالتي النفسية المخفية/ المتوارية؟

لا أحد.

كنتُ أنا من تفعل فقط كي لا أفقد ما تبقى من صوابي.

وطبيبي المعالج يُدحرج حَنانه عبر "نكشة" ملائمة للبدء في كلّ مرة، ذكي مُعالجي، يُلامس ما يحيط بالجروح فلا يُوجعني.

يسأل:

"ما الفكرة التي تا ولم تَفْصَحي عنها"؟

اندَلَقْتُ مثل رَكوَة قهرة ثور نحو الفنجان:

"تعرف؟ لقد ملأت شقتي بالمرايا لتتوزع بشكل عبثي على الجدران والأركان البعيدة"؟

يستدرك سؤالا:

"ليش؟ تحبين المرايا؟"

"أنا امرأة وأحب أن يتخللني النور ساطعًا عبر الشبابيك، والمرايا تُعيد عكس الضوء الآتي من نوافذي والإنارة العلوية وكذلك تعيد تذكيري بنفسي، فكلما لاح انعكاس صورتي، سأتذكر بأنني على قَيْد الوجود، وبأنني حقيقة ما تزال متكوّنة، وبأنني لم أَمُت حينما كُسرَ باب بيتنا في ليلة باهتة البدايات مع أصوات المذيعين الحذرة..... وبعدها، طارت الفراشات من غطائي الديباجي الزهري.

سلوى الصغيرة مُنتهكة في حرب ليست متعادلة بين بلدين لم تنصفهما الحياة كما ينبغي، يختار القدر ضحاياه بدقة؛لا أدري أين قرأت هذه العبارة!

ترى.. مَنْ مِنْ الفتيات/ السيدات تخبئ سرّها الكبير بين عينيها وتتظاهر بالطّهر كما أفعل؟!

مَنْ هُنَّ المُنتهكات الصامتات المعتزلات خشيةً على أسمائهنّ/ أسرهّن/ صُورهنّ ومستقبلهن وكذباتهنّ الكبيرة على الكون... من يا ترى؟

كم واحدة اشتركت معي في مراقبة ووداع فراشاتها الوردية من ديباج مراهقتها في الـ "تِسْعين"؟

كم واحدة تجرؤ على الاعتراف لرجلٍ غريبٍ لا تعرفه وما كان يعرف، مثلك يا دكتور؟

ومَنْ خَدَعَتْ بكامل إصرارها رجلًا طلبها للزواج واستجابت بعد أن دعست/ وارَتْ خيبتها وراء ذلك التاريخ؟

هذا مجتمع يضم المخادعين ويُقرّبهم للفوز بالمتع كلها، تماما كغيره من المجتمعات التي تستمرئ فعل البشاعات في الخفاء وتهوى التواري وراء شمّاعات الظروف وتنتشي بشنيع فعلها المُغفّر بألف رغبة كاذبةٍ بالطّهْر، لـ تُعلن بصوت عالٍ رفضها لكل التصرفات اللاسوية!

فهل يُعقَلْ ألا نتعرّف بعدد المُغتصبات المقتولات معنويًا منذ تلك الفاجعة؟!

أول صيف 2011

كما كل القرارات "الكبيرة" التي يَنوي أبي عادل اتخاذها، قرر لنا اجتماعا.

ظلّ أبي يتعامل مع البشر من حوله مثل مُدير أصيل، ولم يُضيّع كل الفرص التي تحفظه في موقع القائد والصوت الأعلى في أسرته، منذ غادَرتنا أمهُ نصرة.

بنبرةٍ هادئةٍ لا تخلو من أمر، وبعد أن دفعَ طبق الغداء إلى الأمام، قال:

"نحتاج نِقْعَدْ اليوم على الساعة 6 في غرفة المكتب، لازِم نِتكلّم"

بعد لحظات من الصمت، جاء ردّنا بـ "حاضر"

عيناي تنقّلتا بينه وبين أمي أتلمس مفتاحا لدعوته المسائية هذه،

لكن أمي كانت بعينين شبه زجاجيتين تتابعان ملعقتها في الطبق، بينما تُهيّئ لقمة جديدة ببطء شديد وبـ (الحمد للـه، سُفرة دايمة) نهض أبي باتجاه غرفته، وبـ(عافية وهَنا) ردّت أمي بصوت خفيض، نهضَت من فورها تجمع الأطباق، تنقلها للمطبخ.

تجاوَزْتُ عادية المشهد بطمأنينة لحظية وسألت:

"جَبْري" متى آخر امتحاناتك؟"

تنبّه جابر لنداء الدّلع في سؤالي، ضَحِكَتْ عيناه والتمعتا، استدرك بذكاء:

"سلاو، "جَبْر" الخواطر على اللـه! خَلّيني أكَمّل غَدَايْ، لاحْقين"!

اندهشنا وضحكنا خفيةً حين تسرّب لنا صوت أمي وهي تُغني بصوتٍ حنون افتقدناه زمنًا:

"ياللـه إنّك تجبر خاطري المكسور/ ما باتِ مرتاح ولا ليلة/ شِفْت الهَوى ما بَهْ فَرَحْ وِسْرور... حياتنا بالغَيْ وِشْ هِيْ لَهْ.."

غمزنا لبعضنا بشقاوة، اتفقنا ثم انطلق صوتينا باتجاهها؛ (... ويالله تَجْبُرْ خاطِرْها المكسور، ما باتِ مرتاحٍ ولا ليله....)

لكَمَتْ أمي كل منا على كتفه وضحكت عميقا، نهرتنا، وغادرت غرفة الطعام والمطبخ بروح شبه منتشية.

صَفِنْتُ متكئةً على الطاولة.

لا أدري بما حقنتني أغنيـة أمي؟ شيء يشبه الشوق لأيام فطرية مريحة.

يُعلّق جابر مبتسمًا:

"أمي فَــلَّهْ"(*)!

بقيت أنظر طويلا في عينيه الشهلاوين.

أغوصُ في ذلك الرمادي الغريب، اللون الذي صار جزءً مني.. أردّ عليه:

"فعلا.. أمي فَلَّه "!

يهزّني سؤاله:

"سلوى، وين رِحْتِ"؟

أرد بلا تفكير:

"في.. عيونك"!

يتفاجأ/ يسأل:

"شْفيها!"(**)

(*) فـَلَّه: تعبير كويتي دارج في استحسان شخص أو شيء.
(**) شْفِيــهَا: "لفظ مُدغم يختصر "إيش فيها" وتعني؛ ما بها؟

أعاود:

"تْلَخْبِطْني"!

يفتحهما على اتساعهما، يكبر الرّمادي الفاتح، ينعكس لون قميصه الأزرق عليهما، يغرقان من فيضه. يسألني:

"ما فَهَمْتْ"!

أسحب يده لحضن كفي مُداعبةً:

"أقول، يعني، مؤكّد هالعيون مْدَوْخَة بنات الجامعة يا جبر قلبي..."

يطفح خدّاه بالأحمر، يضحك متفاجئًا، ثم يصيح:

"سلوى! صِحْ واللـه شْفيك اليوم"؟

"لا شيء... أحبك"!

أقبّل خدّه، وأُنَبّهُ:

"يالله، راجع محاضراتك، ينتظرنا اجتماع مغلق مع الوالد عصرًا..."

يضرب لي تحية انصِياع عسكرية.. وينصرف ضاحكًا.

جابر؛ رقيق مثل غيمة تلامس الخد.

مثل الندى المتكوّن على بتلة الورد، بياضه نقي، وعيناه تحكيان تاريخًا لا يعرفه.

كَبُرَ هذا الشاب اللطيف بسلاسة عجائبية، نما كما السّحرْ، لم يُتعبني في رعايته، ولا أرهقني الاهتمام بأدقِ تفاصيله وأنا المُراهقة التي لم تختبر التجربة ولو حتى عبر أخ صغير، لكنني كنتُ على إيمان عميق بأنه لن يكون إلا جبرًا لكسرِ روحي الذي كان، واستمر في تفتته مع كل سؤال وتساؤل يخوض في الجرح أعمق.

والأذى، لا يبدأ كبيرًا ثم يصغر كما أخبرتنا جدتي نصرة، كلا! بل يتكوّن أكثر، ويُعاد فَتقه آلافَ المرات، ويتشكُّل من جديد على هيئاتٍ مختلفة كلما كبُرنا وكلما تشعَّبتْ المتطلبات المرتبطة بتكوّنه الأول، هجمته الأولى.. وحريقه الأول!

في غرفتي أنتقي لباسًا يُخفف/ يُضيّع حَريق الاستفهامات التي تشعل عقلي، ما الذي يستدعي اجتماعًا مُلِحًا وقت العصر، الوقت المفصّل على مقاسات راحة أبي، وقت الشاي المُحضّر على مَهل، الشاي الغافي في الهيل ورشة الزعفران؟

يأخذ "استِكانَتِه" على مقعده المريح جدا في غرفة المكتب/ الشاي الملآى بالزرع الداخلي الذي يهوى جدا اخضراره المفرح، مطلًا على الشباك النصف دائري على حديقة كثة تفيض بالشجيرات المتشابكة بالحمضيات، ورائحة القدّاح الأصيل.

أبي؛ يُشعل غليونه تمام 3.30 عصرًا، وحين تتسرّب رائحته

التي تُشبه الفانيلا إلى حواس أمي، تضع إبريق الشاي الإنكليزي الأبيض المورّد بالأخضر على نار موقدها الهادئة حتى "يتخدّر"، وحين يصلنا عبق المشروب الفاخر، نتقاطر، ليأخذ كل منا مكانه على مقعده المعتاد، صمتًا نتحلّق حول أبي، وهو شبه ضائع في دخان غليونه الخشبي، نأخذ بضع رشفات من الشاي، وعلى قلقٍ نحن.

بَدَتْ الحيرة طويلة بالنسبة لي، حتى صار الارتباك في الأوج!

الدقائق؛ لِمَ يتفنّن أبي بحشوها بنكهةِ المفاجآت؟

تَنَحْنَحتُ!

ابتسم أبي الذي يفهمني دومًا.

بدأ حديثة فورًا:

"بعد مشاورات، قررنا أمكم وأنا أن نؤدي فريضة الحج لهذا العام، وحيث أن التوقيت ما يزال مبكرًا، لكم الحق في حال رغبتم مرافقتنا بحسب إمكانية تحقق ذلك، بالنظر لوظيفتك سلوى، ودراستك جابر.."

أنزلْتُ عينيّ المعلقتين بفمِ أبي الذي يحكي، أنزلتهما على الفراغ والوحشة، و... تطاير القلقَ الثقيل وتنفّست عميقًا، تنفّست كلامًا

لايمكنني الإفصاح عنه بصوتٍ عالٍ، أتنفّس كما أوصاني دكتور يوسف حين يتصاعد الحَنَق وتتوالد الدهشة!

أمي مُمسكة بطرف الكرسي صامتة، تنظر لطرف الطاولة أمامها، تلقّف جابر طرف الحديث:

"يبا.."

تنبّهت له وتلاقت أعيننا جيدًا، واصَل حديثه:

"يُبا، الفكرة ممتازة ما دمتم مرتاحين لقراركم، لكن.. اعذرني، تعرف الجامعة.. تروحون وترجعون بالسلامة"

انسحب طرفُ فمي بالابتسامة، كنتُ أصيح بداخلي (نعم! هذا ابني، هذا جبر كسوري كلها)!

هزّ أبي رأسه متفهمًا، وكأنه كان مستعدًا لسماع اعتذار جابر.

نظر صوبي بعين تعرفني، وقلب يقرؤني؛ أخبرته:

"بابا، لكم السلامة في الرحلة، سأكون مع جابر في البيت، ننتظركما بحب حتى العودة"

انزل أبي رأسه متأملًا غليونه الذي خَبت ناره، تلقفّت أمي الحديث:

"تعالي معانا يا بنتي، هذه فرصة لتغسلي نفسك بها.. تغسلي قلبك و... تـ......

عاجلتها بنظرة في وسط عينيها، تعثّرت العبارات على فمها.

قلت:

"لقد غسلت روحي وقلبي ويديّ كذلك وفقدت صِلاتي بكل ما تتعلقون به، لأنه وببساطة لم يقدّم لي الراحة كما تظنون/ تؤمنون، أرجو أن تستمتعا بطقسيكما جيدا، فرحة بكما، إذهبا بالخير والسلامة، ولا تقلقا علينا، أنا وجابر سنبقى سالمين في بيتنا الصغير"

لمعتْ ابتسامة شقاوة في عيني جابر، عدّل من جلسته بارتياح أكبر.. أكملنا جميعا شرب الشاي، بصمت يضج في الحقيقة بكثير من الأسئلة.

كان الصوت بداخلي يعلو بما يشبه الخطبة؛ أن اتْركوني حُرة، اتركوني لأختار ما يُلائم مساحات التلف التي تُعشش بداخلي وأحملها أينما تنقّلت بأفكاري فلولا يقظتي شبه الكاملة، لكنتُ الآن مملكة من خراب، لولا مصدر بهجتي/ معالجي، لكنتُ أنتفُ شَعري على شوارع الكويت الرئيسة مَوبوءةً بأفدحِ العلل والإصابات في العقل والروح!

بسببكم، صرتُ مقحمةً في حياة لا شأن لي بها، سوى أنها - تريحكم - بينما تدوس على نُتف البهجة التي تبثها السنوات بمراقبة - حبة فاصوليا - قلبي وهي تكبر وتشب وتتكوّن حتى بات صغيري

الذي كان منبوذًا في مهده يوم ولادته؛ شابًا/ رجلا وسيمًا بخلقٍ رقيق وعينين رحيمتين!

الآن، لم تعد نفسي معطوبة.

بلغت الـــ 34 عامًا، وحينما تختار أن تُصادق الكتب وحكايات البشر، وتستبدل - إلا قليلا - المحيطين بك/ بهم وتتعرف بأسرار الدنيا، تصير مفردات الانصياع والتطويع والتبعية و"تحت أمرك" و"كما تريد" ضربًا من الخبَلْ!

إني أختار، هكذا تعلَّم جابر، ليس لأني من لقنه هذا بل لأنه قرأ مبكرًا، فأنا لا أعيد الأخطاء التي آذتني ولن أتركه يطرح تساؤلات مريرة توقُّفت عندها في سِن المراهقة ولم يجبني عليها أحد إلا التعب والصدمات!

لا المُعلَّمة، ولا أهلي.. لم يعطني من مَعينِ الحقائق إلا الكتاب.

كانت الأيام العشرة التي غادرنا بها أمي وأبي لأداء مناسك حَجِّهما كافية ومرنة لنُنَفِّذ اتفاقنا اللذيذ جابر وأنا. فأعدنا تأثيث شقتنا، وغيّرنا ألوان جدرانها، علّقنا لوحات منتقاة بعناية فائقة، وزعنا تماثيلًا وشمعدانات ووسعنا المكتبة لتشمل كل الأركان، تقريبا!

وحين أتممنا طقسنا معًا، احتفلنا بمنجزنا الكبير، غداءً لذيذًا مع

أغنية مضيئة لـ "السِّتْ"، ومقطع نادر التسجيل جاءني به "جبر قلبي" يدعوني للإنصات بقلبي!

هذا الوسيم يدعوني للإنصات بقلبي، فماذا غير قلبي ينصت لك منذ تكوّنك الأول يا حبيبي؟

ظلّ يعبث بهاتفه عاقدًا حاجبيه، وأتأمله طويلًا دون فكرة عدا الفرح به.

استأذنَ متعجِّلا، قبّل "زندي" كما يفعل دوما حين يتعذّر أو يمْتَنّ:

"سلوى، اُكْلِكْ لذيذ جدًا، شكرا لأطيب غداء، مضطر لأن أخرج؛ دِيري بالِكْ(*) على رُوحك، لن أتأخر"

كان سطر أغنية "الست" يتردد في رأسي، يعلو.. وأنا خفيفة بالسعادة.

عادَ الحَجيجْ.

ولم أر نورًا ولا راحة.

لا شيء عدا زيارات متوالية لوجوه لا أُحسن التعرف إليها، يعود الحُجّاج كما دومًا في دوّامة من افتعال للرضا ورغبة بالتعافي

(*) **ديري بالك على روحك**: انتبهي لنفسك.

من إرهاقٍ بادٍ عليهما، صحيح بأن أمي نجيبة عادت "مضيئة" بفرحها، لأنها أنجزت ما ظلّت تنتظر تحققه لسنوات من احتساب لأجرٍ عند اللـه، فلم يكن "النور" الذي أطلقته النسوة الزائرات وصفًا على "فرح" أمي نتيجة أداء الركن الخامس، لكنة ببساطة، رضاها التام لاستكمال - ما استطاعت إليه سبيلا - رفقة أبي عادل، فخلال الأيام العشر المباركة، وهما بين يدي اللـه، كان لا شاغل لقلبها/ فكرها إلا الانتهاء من هذا الحِملْ/ الأمانة الدينية التي يخشى أكثر الناس الموت دونها.

فوصف أمي/ كلامها/ التماع عينيها بالذكرى القريبة للمكان والرائحة والأصوات وتكرارها؛ تقليد/ أداء للتلبية التي - كما وصفتها أمي - "تَدُقّ في القلوب"...، جعل ذاكرتي تنعطفُ لنهار مدرسي بعيد، في عام 1989، حين كنا سحر وأنا زهرتين مشرقتين بالأزرق، "مريلة" مدرسية تحرسها المربعات، جديلتان قصيرتان تكشفان جمال خديها، ارتداد رمشيها الطويلين سريعا عن الشمس بحركات متتالية أحبها!

هناك، في الـ 89، كانت تحكي لي خلال فرصة المدرسة بعينين تَطْفحان دهشة:

"أبوي وأمي بيروحون الحج سلوى، جان زين(*) أروح معاهم!

(*) جان زين: يا ليت او اتمنى.

تدرين؟ أمي تقول أن إذا رحنا الحج اللـه يغفر لنا كل شي، كل شي"!

كنتُ أنظر لعينيها المُتَّسعِتين بالاكتشاف والأمنيات والشكر لهذا الإله الغفّار، بالحج والطقوس السليمة، بالفعل الآلي، المستمر، فيما كنت أرسم خطوطًا على رمل الساحة الخلفية في المدرسة، سألتها:

"ولمّا يغفر لنا، شِيصِيرْ(*)"؟؟

تصيح من فورها:

"ندخل الجنة عقب ما نموت"!

قفز وجه مدرّسة الدين خَلفها يؤكّد:

"نسأل اللـه جلّ جَلاله أن يُدخلنا الجنة لننعم بِملذاتها، ولا يقبضنا إلا ونحن مسلمين"

ولا أكترث بالوعود البعيدة/ الغَيبية/ المجهولة.. لكن، كثير من علامات السؤال تتوالد في رأسي وتطير نحو سُبورة الفصل، وتتقافز خلف أجساد المعلّمات وتتشكل عبر مسحوق الطباشير المتطاير المختلط بخيوط الشمس الـ تَعبُر الشبابيك، وترتسمُ على سطح الطاولة، وعلى شباك باص المدرسة ثم تبقى تدور في رأسي حتى الليل..

(*) شيصير: ماذا سيحدث؟

فمن يُجيب على أسئلتي الربانية الواسعة عليّ؟

أسئلتي فضفاضة تتماهى وتتكئ على استفهامات أبي التي يبحث عنها قراءةً كل الوقت، يغترف الحقائق من مكتبته الخشبية المغروسة بمنتصف البيت مثل وتدٍ أصيل..!

وأنا المتوارية بظلّ أبي معظم المساءات، يمسّد عليّ برأفته حين تحنقُ أمي لأنني أتململ من حِفظ آيات القرآن، يسحبُني نحوه، يُعيدني الطفلة التي يُحسن التعامل معها، يُغريني إن حفظتُ الآيةَ، سَيَقصُّ عليّ مما يقرأ الآن!

ابْتَهِجْ بالعَرْضِ السّخي الذي سَيَأْخُذْني من واجب ثقيل.

يهمسُ لأمي:

"إشْوَيْ شوي(*) على البنت، ترى القرآن صعب حتى على الكبار"!

أبي، يا هَيّن يا ليّن، يا مفتاح كل الأسئلة العميقة والشك الرازح في عمق الروح، يا مُدرّبي على النبش فيما بعد الإجابات، كيف تنزل من عليائك وتهبط من التل العالي الذي مَكّنك من النظرِ الأكثر وضوحًا لسفوح الآخرين كل تلك السنوات، لتبحث عن "نور" يُضيء وجهك "بالحسنات" والنور في عقلك نتاجًا لخيرِ فعل؟

(*) شْوَيْ شْوَيْ: على مهلك أو صبرك.

عقلك نتاج قراءتك الباحثة أبدًا عن أسئلة لا تهدأ.

لم ينته اجتماع أبي "العائلي" الذي دعانا إليه فور إعلانه قرار الحج، عند تلك النقطة.

إذ بعد أن شربنا الشاي، أوما لأمي وجابر بتركنا وحيدين، ثم زرع عينيه في جبيني متحاشيًا النظر مباشرةً، قال:

"هذه وصيتي، دوّنتها كما يُفترض أن يفعل كل حَاج، كُتبت لدى محامٍ صديق"

وانقطع حبلُ الكلام، ثم دسّ بين يدي ظرفًا كبيرًا بلون السكّر المحروق، أكمَلَ:

"ستجدين بأن البيت؛ هذا البيت، مسجّل باسمك وجابر فقط، بيع وشراء"

عقدتُ حاجبيّ، نطقت دهشة:

"و... سالم"؟!

ردّ بصوت غاب عنه الرضا:

"سالم اختار حياته بعيدًا عنا وعنكما"

نهضَ سريعًا وتركني في الغرفة الخضراء المُطلة على حديقته التي يُحبها.

كنت وسط الاخضرار بلا فكرة!

لكني، أتذكر جيدًا، بأن شعورًا بعدم الارتياح نازعني حتى التقينا ليلًا، قُبيل العشاء، مسكتُ ذراعَهُ وأخبرته بهدوء وهَمْسْ:

"ستعودان بالسلامة، وسَتَعِذْني بتغيير وصيتك هذه لأُخرى ترضى أنتَ عنها، فأنا لستُ بحاجة لمزيد من النزاع خصوصا مع سالم.. خُذْ من اسمك صِفَته يا أبي"!

أسبوعان انقضيا.

انتهت مباركاتِ المؤمنين التي شَحَنَتْ البيت بالثناء والغبطة، وحين تبدَّدتْ قليلا سحابة التّجلّي التي تسكن عادة قلوب الحجاج لفترة، طلبَ أبي الوصية التي تَركها لديّ، طَلبهَا بصوت خفيض أعرف ذبذبات الصدق الشحيحة فيه، طلَبها لأنه يُريد "توثيقها" كما أخبره المحامي الصديق، ابتسمت لعينيه الزائغتين بعيدًا بينما أسلمها له برضًا تام.

لن أُحرجَكَ بمزيدٍ من الأسئلة الفضفاضة يا أبي، لقد اختفت الوصية وضاع الموضوع كأنه لم يكن.

صيف 2011

مضت أكثر من 6 أسابيع على آخر مرةٍ انتزعتُ فيها موعدًا للحديث مع معالجي، وفي الليالي الـ تضيق فيها الإجابات تُفتَقَدْ يا دكتور يوسف!

قفزت من سريري أبحث عن هاتفي لأكتب له، وتغيب أية فكرة للسؤال عن رأسي، كتبتُ من دون تفكير:

"أحتاج لرؤيتك، مضى أكثر مما ينبغي، فهل يمكن زيارتك؟"

ردّ بعد ساعتين:

"طبعا يمكنك! متاح وقتي اليوم ما بين 6 - 7 مساء؛ السّاعة المُبَارِكة"!

تخيلته بينما يكتب ردّه لي على هاتفه، وتبسّمت!

دكتور يوسف، يشبه نجمي العربي الأول "يوسُف شعبان"!

أغبطُ أبناءَه على حنانه، وشخصيته المرنة الدافئة بالإنصات الجليل، ... ترى كم ابنًا لديه؟

يال هذه الحياة وتفاصيلها.

كيف فاتَني أن أساله؟

هممم.. لعلّ لديه ثلاثة أبناء، ربما ولدين وبنتا؟

فهل يحملون من صفاته الكثير؟

لاشك بأن أعمارهم تتراوح ما بين 7 لأصغرهم و13 للكبير!

لابد أن أساله عن اسم زوجته!

وكيـــف يُرتّب ســـاعاته بينهم وبين عيادته ومرضاه الأشـــقياء بـ رضوضهم!

أُكَرْكِرُ طويلا وأقشعر.. ما بالي أرسم الحكايات في خيالي؟

أساله:

"دكتور يوسف؛ ماهي الحكايات"؟

يجيبني ضاحكا:

"سأستعير تعبيرًا مرّ في حوار سينمائي، إذ قال البطل يومها؛ بأن الحكايات هي المساحات التي يتاح فيها للخيال أن يتفجّر"!

وفتحَ ذراعيه على أوسع ما يمكن، ممثلًا للتفجّر الذي يقصده، رأيت ظلّه على الحائط أمامي، بينما أفكك في رأسي كلمة "يتفجّر"

خَطرَتْ لي رغبة مفاجئة بالتمعّن في كفّه، لكنني خجلت من هكذا طلب، بماذا كنت أفكر؟

(فاصل كبير من السكوت، سلّمه لسكوت آخر.. ثم صمت بعيد يهجم على الدقائق، وقلبي يثرثر بكلمات بلا ترابط،...)

ينتشلني السؤال:

"سلوى؟ ما أخبار حُلْمَكِ/ الكابوس"؟؟

كهرباء مفاجئة سَرَتْ في أسلاك رأسي:

"ما زلت، أتدلى من الشباك، و....

أطيل التفصيل في فراغ الفكرة/ اللحظة.. يأمرني بـ أن أرخي يدي اليمنى عن تعلّقها بفستاني، ثم يعلّق:

"لكني أراكِ أفضل بكثير، أنتِ بعد غياب 6 أسابيع ويومين، أراكِ مشرقةً، جدًا"!

: "دكتور، أنت لا تعرف كم مرةٍ أنام في نومي، أنام في الحزن، وأنام في التعب، وأنام بالفرح.. وأنام حين لا أجد حلًا لمشكلة جديدة.. أحيانا أصدّق بأنني ميتة فعلا، حسنا؛ لماذا لا تقوم الطبيعة بدورها وتبتلعني؟"

يردّ بهدوء:

"ومن سيكون لجابر؟ من سيوزّع حلوى تخرجه؟ ومن سيراقب الحب في عينيه؟ ويزوجه؟.... سلوى، أنت لا تحتاجين للموت، فلا تنتظريه، .. فكري جيدا في الحياة، كيف ترين رأسك؟؟"

"يثرثر كثيرا!"

"جميــل! لكننــي أراه يميل جهــة القلب.. ما أخبــار القلب سلوى؟"

بركان ساخن ارتفع في صدري، قلت:

"دكتور! هذه الأيام وجدت رأسي الغبي يميل هناك، يميل إلى

الشبح، أمضيت ثلاثة أسابيع أبحث عن اسمه في محرك الـــ فيس بوك! إلى ماذا كنت أمضي بربك؟! لماذا أريد النبش عن هذه الندبة في جبيني؟

صدقني، أشعر بأنني أتعفّن برغباتيِ المجنونة هذه!

صافحَـــتْ عيناي ما يزيد عـــن 543 "إيـــاد" حـــول هذا العالم الافتراضي القَميئ، وأنا شـــيء هُلامي يشبههم، تافه وسطحي و... هدفي حقير، عَمّنْ كنتُ أنبشُ حقيقةً؟ باسمي المستعار من كابوسي الذي تعرفه؛ مُعَرّفي على الفيس بوك: "وشاحٌ يَضيع"!

قل لي ما الذي اقترفه بحق المقدّسات كلها؟!

سمعت وشوشه هادئة لموج البحر من ورائي، ووشوشة من فَمِ معالجي، لأهدأ من ارتجافي الطارئ.

(طال الصمت حتى تجاوزناه)

بهدوء شديد، طلب مني معالجي أولا أن أختار في إغماضتي لونًا أحبه جدا، وأن اسمع كلامه الآن جيدا:

"سلوى، ستمسحين تطبيقات التواصل من هاتفك، وستعودين للكتب فقط، أحبكِ قارئة تُخبرني بما راق لها مؤخرًا، تكتب لي عبر

رسالة نصية لطيفة، إنني أغوص في كتاب كذا.. لأبْتَهِجْ"!

اتفقنا؟

: "اتفقنا".

: "إذن نكتفي الآن وسأنتظرك دوما".

: "نكتفي، وسأزورك، حتما".

إذن، التوازن الذي يتحدثون عنه ليس ضَربا من المُتخيلات؟

نصادفُ مشـكلة ترهقنا، نُلغيها من حسـاباتنا بقليل من التفكّر العقلاني.

علّمني معالجي بأننا في كل حادثة تدهشنا، لابد من تصديقها ولو على مضض، وقبولها ولو قليلًا، ثم لتكن مصلًا واقيًا دخل أجسادنا وجدّد بنا القوة، لنعاود التكوّن والرغبة بالحياة.. من جديد.

نظرتُ مليًا لهذا الجهاز الذكي، مستطيل أبيض، ولشدة ذكائه ما عاد يحتاج لمفاتيح أرقام بارزة، هو باللمس الناعم يعمل، آخر ما كتبته على صفحتي في فيس بوك قبل الإقفال الأخير:

(باللـه عليكم، هل من قاضٍ عادلٍ يشرح لي كيف يمكن أن تستمر

حياة فتاةٍ تعدى الزمن على حقّها بالفرح وانتزع حلم طفولتها، ثم أمرَها؛ أنْ أبْتَهِجي)!

في الحقيقة لم أكن أطلب جوابًا على سؤالي الأخير، كان وداعي النهائي لعالم الوجوه الزرقاء المدفونه وراء الشاشـــات، المتوارية بالأسماء المســـتعارة والخيبات، وبلمســـة ناعمة، أنهيت وجودي هناك، فأضحى المستخدم "وشـــاح يضيع"، نسيًا منسيا، وبصورة فارغة، صفحة لا مرئية، إنها التوبة حينما تُعلن.

خريف 2012

تنشغلُ أمي بالفرح!

عيونُها ساهمة بأركان البيت، تتحاور والفراغات.

في غرفة سالم التي فُتحت للهواء والضوء، عاملٌ يُعيد طلاءها بلون الزنجبيل الدافئ، وأثاثٌ بلون القرفة يرتاحُ في زواياها، الستائرُ بالأحمر القاني مَلَكيًا طاغيًا، وشتلات الورود تزيّن النوافذ، التجديد امتد/ تطاول حتى صالة الجلوس الكبيرة، البيتُ يزدان بالألوان الحقيقية، وبهجة أمي نجيبة ترفع مؤشرات الفعل الحَسَنْ في محيطِ بيت "بوعادل"، فينشطُ لزراعة حديقتِه بالمزيد من الأخضر.

وأنا، تُقلقني هذه السعادة الواسعة.

وتُربكُ جابري، الـ تختلطُ فيه المشاعر من دون أن يَفْهَمْ سَببها.

يدخلُ للبيت حاملا كتبَه، وبعينيهِ صُحبةُ تساؤلات:

"متى يوصل سالم"؟

أتمضمض بالإجابة قبل إطلاقها، فتسبقني أمي:

"عُقب باكر بـ جِيلْ اللـه"

تكملُ تنسيق طاولة الطعام متشاغلة، يهزّ جابر رأسه ثناءً، وكلام كثير لا يخرج لنا.

يبحث عني/ عنه.

بين شتلات أبي الـ تنتظر الغرسَ بأرضِ البيت، يجدني أفترشُ درجات السلم في الحديقة، يجاورني، يكسر الصمت:

"سلاوْ؟ فرحانة لأنّ سالم بيرجع"؟

أجيبه:

"المهم يكون هو فرحان"

يرد:

"أمي وأبوي طايرين من الفرح، وأنا، ما شِفْتَهْ ولا مَرّة، فَـ ما عِنْدي شُعور"!

أُطمئنه:

"من الضروري أن يرجع الفرح للبيت يا جبر قلبي، تعال نشرب قهوة معا"!

***

ها أنتَ قد عُدْتْ.

تجاوزتَ هربكَ أخيرًا؟

يا سالم، كنتُ أودّ أن أعطيك من روحي، لكن ما عاد عندي شيء يَستَحق أن يُعطى.

حين خذلتني، خوفًا/ رهبةً/ صدمةً/ حنقًا، أيًا كان سبب خذلاننا المشترك، صرت منذها أمشي بنصف جسد، بثلث حياة، بربع ثقة، وخمس أمنية، وسُدسُ توقعٍ، وسُبع رغبة وثمن تخيل وتُسعُ فرح و... عُشْر دهشة!

تحاملتُ على نفسي وأنا أضع عينيّ في عينيك يا سالم، فهل أعجبك الهربُ بعيدًا فاتخذته استقرارًا مزعومًا؟

ما الذي حدَثَ لتظلّ هناك طويلا؟

ألم يخطر ببالك يومًا أننا جميعًا على قيد أمنية بعودتك المفاجئة في مناسبة تُفرحنا قد نعبرها؟

فـ مالذي تغيّر اليوم؟

هل تلاحظ بأننا، أنت وأنا قد كبرنا كثيرًا؟

لم نعد نركض باتجاه الحياة، بل لم نعد نمشي إليها حتى!

هل تذكر ذلك الصيف الذي انقلب فجأة لشتاء قاس بالفَقْد/ الفشَلْ و.... العار؟

ذاك الصيف الجحيم، أنتج طفلًا صار الآن شابًا/ رجلًا، يقاربك الطول، أوراقه الرسمية تشبه أوراقنا، يحمل اسم والدينا، شئنا أم لم نشأ، فاستسلامكم يومها/ ساعتها كان اختياركم، ولا بد بعدها من تقبّل كل ما سَيكون.

وجابر الآن هو ما كان.

يا سالم، يا أخي الأكبر يا رفيق طفولتي، يا سَنَدي؛ لا أحد يفهم حزن المُتعبين من الحياة، فحزننا يشبه الخدَر الطويل بلا صحو، وقت يمضي بلا متعة تهز القلب من منتصفه، فلا تظلمونا بالتجاهل والقسوة، عوّض لنا ما فات من بُعدٍ، وطبطب علينا كحقيقة ملازمة هي أقدارنا، تذكّر كيف كنا، أنت وأنا، نتعاطى المحبة بقلب واحدٍ/ عُمر واحدٍ و.... سِرٍ واحد، نضحك ونتخاصم ونتصالح كلما لاعبتنا دنيانا.

قضيت البارحةَ، أتخيُّل شكل لقائنا.. وما فلحت!

شكل حوارنا، كيف سيبدأ وإلامَ سيمضي.. وما نجحت!

لا أريد أن أعرف شكل النهاية أصلًا.. لأن النهايات تعني الاكتفاء واللارغبة.

يا سالم.. كن أخي الذي أعرف، وهذا يكفيني.

انتهى هنا، حوارنا سالم وأنا، حوار ذو اتجاه واحد، كان متجمدًا على باب حنجرتي، ثم سال مرتاحًا، خرجنا بعده للصالة حيث الجميع ينتظر، حين احتضنني سالم إلى صدره، شعرت بأن ثمة لوحة تتشكل في السماء.

شعرت بأن كوَّة اللـه جل جلاله قد بعثَتْ لنا ببركاتها الـ كانت تنتظر الصَّفْحْ، فصار قلبي ساخنًا بالحنين الذي غاب عنه طويلًا.

لم يكن حلمًا بعيدًا، بل كان رجاءً يُلَبى.

ارتفع صوت أمي بالـ "يِبّاب"(*) فجأة، وسط دهشة عيون تنتظر، زوجة سالم الشقراء التي خانتها دموعها فغمرتْ خديها، واستغراب جابر الكبير الذي كان يبتسم لمهرجان الفرح المحزون هذا!

لم يغبْ أبي عادل عن المشهد تماما، لكنه اكتفى بالجلوس بزاويته المعتادة، بين يديه "استكانة" الشاي، ومشاعر شفافة لا يمكن تجاوزها.

(*) اليِبّابْ: الهلاهل وصوت الفرح الـ تطلقه حناجر النساء في الفرح.

مرّت العاصفة المُنْتَظَرة بأقل مما توقعنا من خسائر في المشاعر، هدأت القلوب الـ رَفَعَ نبضَها الفرح المباغت/ الغائب زمنًا، وسالم يتجوّل في البيت/ بيتنا مثل سائح عاد لمكانه الأصيل، يعيد تلمّس زواياه ويسأل عن تفاصيل ما عادت هنا.

عيون زوجته "ليـــندا" تغترفان الأسرار الغريبة عنها، يجيبها سالم لكن الذكريات حين تُحكى بلغةٍ أخرى تفقدُ الكثير من من روحها وتتشوّه، لطيفة هذه الليندا، شقراء جدًا ونحيفة جدًا، وعينا أمي تتابعانها تركيزًا وخططًا لقادمٍ لاينوي عليه سواها!

شتاء 2012

ثلاثة أشهر وسالم بيننا.

تِسعون يومًا من تلوّن وجه أمي بالفرح.

لكنها دائما، مبتورة بهجتها بالسؤال الذي وجّهته لي في نهار شديد الهواء والبرودة:

"خير يا أمي، وجهك لايشبهك هذه الأيام"؟

هَبّت ببركانها:

"من أين يأتي الخير؟ ابنة سالم ياسمين؛ بنت عمرها 14 سنة، يتركها في مدرسة داخلية هناك وهو معنا"؟؟

"هل سألته هذا السؤال"؟

"لا طبعا.. أخاف يزعل".

: "إذن فالإجابة ليست من اختصاصي، فلا تنتظري مني تحرُّكا، اسأليه هو ليُجيبك، هو"

وصلني حنقها وتلويحة يدها الـ تعني الكثير، بصراحة؛ لأول مرة أعرف بأن لسالم بنتًا، فأي عَمَّة مُغيبة أنا؟!

***

طرحتُ سؤالي/ حَنَقي على الدكتور يوسف، عبر هاتفي:

"تْصَدّقْ بأني عَمّة غائبة/ غافِلَة لفتاةٍ عمرها الآن 14 عاما"؟؟

أجابني:

"سالم من كان غائبًا عنكم، ولستِ أنتْ.. لا تجلدي ذاتك، خبّريني؛ ما آخر كتاب بين يديك"؟

: "أتابع مخاض سوريا المتعسّر، ليتها تلحق بمن سبقها نحو... اللاأدري، التحولات على أوجاعها، صحية،...، هذا نزاع بين أربعة قوى، لم تعد ثورة كما بدأت بين شعب وحاكم، هذا الاقتتال أكبر مما قد تخبرني به الكتب حاليا.. على أيه حال، بين يدي كتاب خفيف ظل عنوانه "حوار بين طفل ساذج وقط مثقف"(*)، لابد أنهيه لتقرأه "!

(*) حوار بين طفل ساذج وقط مثقف: للكاتب المصري أحمد بهجت.

"لديك جواب حاضر يقنعني دائما.. ما أجملك سلوى"!

ضحكنا وأنهينا المكالمة سريعا.

و"ما أجملك سلوى"، سحبتني نحو المرآة في غرفتي، تأملتني طويلا.. وغرقت بالأفكار.

خلال ساعات النهار التي يقضيها جابر في البيت يدفن رأسه في هاتفه الذكي الذي جعل الناس بأبهى شكل للعته!

استفزني منظره الذي يحيله لغائب حاضر بالجسد، بينما ذهنه منشطرٌ بين هنا، وهناك.

ترى ما الذي هناك؟

ما الذي بدأ يُزهر في رأسك يا ولدي فيرسم ابتسامة غابت عنها البراءة التي أعرفها؟

هذي ابتسامة نصف مائلة باتجاه الدنيا، شيء يشبه مُواربتك لحقيقة شعورك المنقسم على اثنين، محبتي عالية التردد، وسرّك اللذيذ الذي تلمسته رغمًا عنك بحدس الأم الـ تسكن قلب ابنها ويحتويها بكليّته.

ليس لأنني أحسن قراءة الماوراء، بل لأنني أمرّ بتلك الأيام

التي تُشْعِرُ الإنسان فينا بأنه صغير جدًا، منكمش على جسده، فلا يعيش بأكثر من صَومعة ونَفَسٍ هادئ، يفترش ناصية التوقعات لقادم يَبرقُ بكل المشهّيات التي شَحّت من جدول أيامه، واليوم، أظنني أصغر من الأحداث كلها، بل وأصغر من أن انتظر بشارتك الحبيبة على قلبي.

فالكون لا يتوقف بسبب تصومعي هذا، هاهي الناس تثور في بلدانها، تُسقط حكّامها، العالم يفرّق أنخاب اكتشافاته المذهلة كل لحظة، والشمسُ تعاود الظهور كل يوم بينما يخلع الليل قميص نومه باستقبالها.

وأنت يا جابر، تكبر، وتكبر.. وتُفرحني، فأنت من عطايا القدر التي دُسّت في جيبي على عجلٍ،.. أعرفك مذ كنت طفلًا، حين ترغب بشيء لم تكن تطلبه، فقط تتململ، وأنت الآن ربين يديك هاتفك تبدي تململا طفيفا، وسريًا وجميلا.

تحتار حين تلتقي عيوننا صدفة، تحوّل انزعاجك لابتسامة واسعة، بينما تسحرني هاتين الجوهرتين الفاتحتين بلون الرماد، كم دار حولها الحديث استغرابا، لتتلقف أمي دبوس السؤال:

"جدتي كانت عيونها شَهْلَه"!

والكذبــةُ تجرّ كذبــات، وأجمــل كذباتنا تكبر وتصبح شــابة وتُفرحنا.

صيف 2013

وزّعنا الحلوى في أمسية عائلية جمعتنا بابنة أخي سالم ياسمين المشرقة بـ 15 عاما، ابنتنا الغريبة عنا صورةً ولسانًا، فـ جابر استكمل متطلبات تخرجه مهندسًا متفوقًا، قال لي:

"سأبني لك بيتا صغيرًا حين تِتْزَوّجينْ"!

أجبته بينما أرتشف كوبًا من النعناع:

"لـن أتزوّج يا حبيبي"

همس تعجبًا:

"ليْشْ"!

أجبته بضحكة:

"ما أحبّ الزواج"!

رمى بصدق:

"لكني سأسبقك إن ما فعلتِ"!

اندلق النعناع على فخذي.

هل كنـــت أتجاهل رغباته الطبيعية جدا بالاســـتقرار والبهجة، بالبيت والأسرة؟!

صاح بي:

"بِسْمِ اللـه! احترقتِ"؟!

أجبته أطمئنه:

"لا تخفْ، ليس ساخنا إلى هذا الحد"

كنتُ أجفّفْ مكان الســـائل المنســـكب وأفكّر، من ســـيختار لك يا ولدي، من يعرف ذوقك نحو البشر والأشياء غيري؟

كنتُ أملأُ ذلك الفراغ بترويض روحي للتحليق نحو حُلْمِهِ الذي سيتناول فيه مشتهاه وأعيد التكوّن فيه، أعود إليه لتبتسمَ عيناه، عاجلته بنظرة نزقة واسعة، أستحثه على التصريح:

"تُحِبْ"؟؟

خفضَ بصرَه يمسّد راحة كفي.. مبتسما بفداحة ما استطاع مداراتها، وهزّ رأسه:

"إيِنْ"!

يااااه ما أجملك!

عَوّضني حبًا وانطلق نحو بساتين الدنيا، واغترف وردًا، وليتصاعد النبض ليدقّ في عنقك ارتباكًا واشتياقًا، فليكن عشقك نهرًا هادرًا بالألوان يروي الحياة كلها، أوليسَ الحب، حياة؟

أمسكتُ بيديه جيدًا، درنا كثيرا حتى دار رأسي، أسندني وهو يكمل:

"بنت حلوة، شقراء إلا قليلا، كانت تدرس معي، عراقية الأصل بجنسية بريطانية، والدها طبيب مشهور يقيم في الكويت....."

غاب الصوت..

غاب الصوت الـ كان ساطعًا بلون عبّاد الشمس.. فمن خَرَقَ أذني؟

لماذا اختفى صوتي لثمانية أسابيع رغما عني؟

لم يفلح الأطباء بمعرفة العطب الذي شرخ روحي!

آه يا جابري، أحبّك، وأحبّ حبّك، ولكن هل سأقوى على مباركة اختيارك الذي قد ينذُ فرحتنا به - أهلك وأهلي؟

كيف مضت الأسابيع الخرساء في الصمت؟

كنا نتخاطب بأرواحنا، بالورق والقلم، بعيوننا.. أنت وأنا.

لكن خشيتي العارمة لم تَصلك، لم أكن أود الخربشة على دفء قلبك.

عراقية؟

العراق يظهر من جديد بعد التكون الأول، وحين صَارَخْتَ أبي وأمي، سألتَنا حانقًا:

"آنَ لكم أن تنسوا الغزو، انتهى الأمر، وأُعْدِمَ صدّامْ، وفُتحت السّفارة، ما الأمر الجَلَلْ الذي يترككم تحملون كل هذا الغِلْ بداخِلِكُمْ"؟!

كان يُدافع عن حُبِّه بلاشك، وكنتُ الوَحيدة التي تَتَفَهمه وتَبْكي عَليه.

حزينة أنا.

ويغيب صوتي وَرَاءَ حُنجرتي أكثر!

صمتٌ عال وأبي يُمسّد بين عَينيه بلا أيه كلمة، وأمي تنتفضُ متأخرةً ببلاهة مُتقنة:

"من باكر أدوّر لك على بنت مِنْ مُواخيذْنَا(*)"!

غبتُ في الضحك الدامع.

مُواخيذنا؟!

مواخيذ جابر؟؟

كفى هُراءً وارحموا قلبَ هذا الشاب الذي تَكوّن ونَما وكَبُر في محضِ اعتداء!

بنظرةٍ عمرها من عمر جابر مَررتُ على وجه أمي، أنزلَتْ رأسها، وغابَتْ في كرسيها، وكأنها أَعادت الإنصات لما تفوَّهتْ به من حَماقة، غاصَتْ في خَجلِها.

في ورقة صغيرة كتبتُ لسالم:

(يا أخي، ضاعَ صوتي من تعبي، أرجوك، فلا أحد يفهمُ حزن

(*) مِنْ مُواخيذْنَا: من مستوانا الاجتماعي ومناسبة لنسبنا العائلي والمادي.

العاشق، حزنَهُ يُشبه حفنة سكّر لذيذة لكنها مُمْرِضَـة ومؤذية، مع ذلك هي الملاذ حين يهبط منسوب الفرح في دمه، اتركونا نختار هذه المرة، أنا الأم/ الأخت الآن.. وأنا سأختار لـ ولدي/ أخي).

خريف 2013

طلبتُ لقاءً سريًا/ خاصًا من جابر كي أرى حُبّه الجميل رؤيا العين، وافَقَ ولم يتردّدْ.

حين التقينا وأمضينا ساعات من حديث ناعم مع العروس الحوراء "داليا" لاحت لي كيمياء حبهما مثل إكليل يطوّقهما بقدسية إلهية.

هَمَستُ لهم:

"اخضرار الأمنيات لا يعني أنها استعدت للقطاف، ربما علينا نحن الثلاثة أن نصبر قليلا، نحتاج لفاصلة انتظار كي تَصْعد أمنياتنا نحو السماء"

تفاصيلُ لقائهما كانت حُبلى بصغار الملائكة ممن رسموا لنا

الخير الآتْ صورًا، وواعدونا بأن يملؤا جيوبنا نحن الفقراء إلى اللـه بتحقق الرحمة.

نقشتُ رسالتي نصًا لمعالجي/ صديقي:

(لقد قابلتُ داليا عروسَنا المرتقبة، اليوم، بمجرّد لقائنا حلّ السلام والمطر والبركة، أنا سعيدة برَغْمِ مملكة الحزن والقلق في عينيهما).

ردّ من فوره:

(قلْبك يَنثرُ الحب يا سلوى، أرأيتِ كيف؟ الحبّ يسحرنا/ يحولنا ويبهجنا كالأطفال... حَسَنًا فعلتِ).

نمتُ على بهجة سرية المنبع، وأظنهما فعلا الشيء نفسه.

مُعالجي وصَديقي، يُنْصِتُ بديلًا عن أُسْرَتي والدنيا.. أخبرته:

"كل مابي يشتعل حريقًا، هل تصورتَ يومًا أن يسقط وعيك مغشيا عليه؟ أنني أخاف من القادم لأول مرة، لا أريد التعب لعينيّ صغيري استبدال إلى حين كبُرَ وقرر لمرةٍ أولى الاختيار لتكوّن يُغوي؛ فَيُجَرُّ لدُنْيا قرَّرتْ أخيرًا مَدَّ أصابِعَها الطرية بالفَرحِ إليه،.. لا أريد له أن يُصَدْ!

أتمنى،.... أنْ ألَوي عُنقي لأرى مُسبقًا ماذا يَطوي له الطريق!

يحثني دكتور يوسف:

"انفصلي عنه قليلا كوني الجنة التي تُؤمن بالصبر وتطمئنه خلال الانتظار، بعض الخطط تحتاج لسنواتٍ من صَبر كي نُكمل الدخول إليها بقلبٍ أقوى وزمنٍ أجدى ثم نشرع بما نَبتَغي..."

قاطَعْتَهُ:

"دكتور؟ لن تَنْساه السّماء، صح؟ لن تبخل عليه هذه المرة على الأقل، لن تنسى أنه أتى إليها بحضور ضعيف حتى اسْتوى من كل اعوجاجٍ رافَقَهُ منذ أوّل الخيبات"!

هل تخيلت بأن يَدْ الدكتور يوسف على كتفي أم تمنيت ذلك؟

هل كان حقا يُمسك بي من وراء الكرسي ليخفف القلق الرابض على روحي؛ أم حديثه كان يُبلسم أيام القلق؟

أسَرّ له:

"دكتور، لولاك.. لنالَتْ مني الدنيا جيدًا، ولبَقيتْ أُجَدُّف في بحر أسود بعصاي الوحيدة المُعوَجّة فلا أصل حتى لربعِ المُنى..."

تربيتةُ شُكْر تصلني منه عبر تنهيدة واضحة.

أهمس له:

"أظننا نكتفي"

"حسنا... ما دمتِ تُريدين"!

أنهضُ من كرسيي، يناديني:

"سلوى"

"نعم "؟

لا تغيبي كي لا....

استعجلت الردّ:

"لن أغيب.. لن.."

شتاء 2014

كان اللـه قد لَطَّف الهواءَ وأرسلَ الغيم في تلك الجلسة المغلقة، تلك الدقائق المصلوبة فيها أرواحنا حول حلم نتشارك بالوصول إليه بطرق لا تتشابه، أمي نجيبة وأبي عادل و... أنا!

ننسجُ التفاصيل التي اختلفنا عليها مُذْ غاب صوتي أسىً على صغيري الذي هَبَطَ الحبُّ على قلبِهِ، وحين اسْتَعَدْتُ صوتي قرّرنا التّصارح مُتدرّعين بالصفاء بعد سنوات من الأذى.

فكل ما كُنا نحتاج إليه سَماء خالية من سحب السنوات البعيدة، ووحي يَهْبُط بالحقّ ليُعشب مستقبل جابري بالعشق الذي أراده.

اتخذتُ مكاني وخاطبتهما بلا مواربة:

"لعَلّي أريد أن أذكركُما بأني امرأة نَسِيَتْ كل مَباهجها يوم اخترتُما حياتكما وواجهت مصيري بينما في رُكوع للخوف كنتما،

نسيتُ تاريخ ميلادي وتغبَّشتْ ذكرياتي مع الحياة، نسيتُ البكاء كطفلة/ والغناء كشابة، فقد تَفَلَّت قلبي من كل هذا وذاك، وانصهرتُ بحريقي الذاتي مع طفلٍ حَمَلَ عينيّ سارقَ فرحي، لتوبخني الذكري في كل لحظة أمارسُ فيها مودتي معه، نما ضلعٌ جديد غير مُرحب به في عائلتي، ومع ذلك لم أتنازل عن حقي في التنفس كَأُمّ، مَوسومة أعيش بتلك العَضّة التي خَلَّفتْ صَرخةً مكتومة تدوّي في روحي رغما عن الدنيا.. وعنكم.

وهذا الوشم كبُرْ.

صار علامة أفخر بها جيدًا.

مُقحم هذا الإنسان في حياة لا شأن له بها، وجابري أنا اليوم ولمرة يتيمة يختار.

باركوا هذا الاختيار ولاتَحْقنوا في أوْرِدَتي المزيد من الأمْصال المُرّة.

ما لاتعرفونه هو أنني تَلَقَّفت بقاياي من ضياع كان شبه متكون، هرعتُ باحثةً عني كي لا أنشأ أمًا غريبة الأطوار/ موبوءة بأفدحِ العِلل وأسرّبها رغما عني لوحيدي.

لولا انتباهي العالي لروحي الموجوعة، لما انتبه إليّ أحد.

إنني أعالج نفسي بنفسي، أمارسُ العَطفَ عليها ويُشاركني

غريبٌ نذرَ عبر قَسَمِهِ الطّبي نَفْسَه لإنصات مجدٍ/ مفضٍ للسلامة.

فلاتدمّروا بحماقات جديدة ما اجتهدتُ لترميمه بداخلي، ولا تُكدّروا نصاعةَ أثوابكم الـ قَصَرَها الرّكن الخامس حين حَجَجْتُم وَعُدتُم ترفلون بالبياض والرحمة وبعدما عاهدتم اللـه بحسن الفعل كل المتبقي من العُمر!

ثم يا أمي نجيبة، ما مُناسبة استخدامك لـ مِنْ مُواخيذْنَا؟

نكذبُ على الدّنيا ونعيدُ تفصيلَ الرغبات على هَوى كذباتنا وكبائرنا المقترفة بالاتفاق؟

أم أبْهَجَكِ ابن ثانٍ مجانيّ في وصوله؟

ولدٌ لم يُتعِبكِ الخوفُ عليه، لأنه نما وشَبّ وأحَبّ في حضني أنا؟

لكنك وَهَبْتِه لنفسكِ، أمُّه عَلنًا، واستمرأتِ كذباتكِ على الجارات ونساء العائلة، نجيبة لم تصل لسن اليأس وأنجبت ولدًا بعيون رمادية مثل جدّتها!

أظن يكفينا كذبًا على أنفسنا.. أرجوكم، دعونا نحترم ما تبقى من علاقاتنا الـ هتكتها الحرب والخشية منها، دعونا، هو وأنا نقرر أن نعيش.

ربيع 2013

في نيسان، الشهر الذي تتحقق فيه المعجزات بمجانية، والشهر الذي هبط فيه جابر إلى حضني لأول مرة، صار جديرا بالاحتفال، فقد اختاره وعروسه داليا لتتويج لقائهم المُحِبّ بأكفٍ مفتوحة على تَمَني الخير، قُرِأَتْ الفاتحة تشاركًا بين والدها وأبي، وأُقْفِل على عَهدٍ مقدّس عقد ارتباطهما الذي كان منتظرًا.

باهتة ابتسامة أمي لِيلتها.

وفرحي غامر مثل تحقق وعدٍ رباني بعيد.

وياسمينة سالم أخي تطوف بالحلوى اللذيذة على من شاركونا المُباركة والدعوات.

ليلة تزوّج جابر، ملأ الوردُ والبخورُ جيوبي حتى الإغراق، كيف لي أن أصف تشظي مشاعري حين قَبَّل أبي رأسي مُبارِكًا زواجَ حفيده/ ابنه وعلى وَجهه نُبلُ الكون كله؟

ليندا تقول بإنكليزيتها:

"أتفَهّم تماما ما تشعرين به"!

وتبتسم بألقٍ وبعينيها كلام كثير.

غمزَ لي سالم من بعيد،.. فزواج أصغر الأُخوة حميم دائما وله طعم الفَقْد المحبب رغم ذلك.

طمأنتُ قلبي، لن يخرج السرّ لغريب.

ما بعد الضوضاء.

صحوتُ باكرًا، ارتديتُ ثوبًا جديدًا وعَقصتُ شعري بوردةٍ من حفل الأمس، بيدي علبة حلوى من متجري المفضل، دخلتُ على الدكتور يوسف بفمٍ مبتسم بفداحة، لوّنه أحمر الشفاه لأول مرة!

نهضَ صديقي/ معالجي من مَكانه.. ردّ على فداحة الابتسامة باوسع منها.

قلت له:

"الفرحْ شهيته مفتوحة لكل شيء جميل، هكذا قرأتُ مرة"!

صاح مثل طفل:

"خَبّريني"!

"مساءً، كنت مضيئة بشعور مختلط، نمتُ ليلتي بينما في رأسي صورة واحدة لإبني وعروسه، كنت أرى أن الستائر في غرفتهم تتراقص وبأن الزهور الحمراء المطرّزة عليها تنتثر عليهما باحتفال..."

"سلوى"؟

"نعم"؟

"أنت مغمورة بالنور مثل مَلاك يحتفل بالتتويج، فلا تحكي لي شيئا.. لنشرب قهوة فرحنا المشترك"

حين انتصف النهار، غادرتُ عيادة دكتور يوسف، مخمورةً بالمتعة، صامتة كل الطريق وبقلبي نزقٌ قد تأخر كثيرًا.. لكني ممتنة للشعور به.

صيف 2014

في ليلةٍ رمضانيةٍ مَدَّدها الصيف سَهرًا، بماذا يُمكن أن أقضي ساعاتها الساخنة بالهدوء والبَيات الصيفي عدا التوغّل/ التوحّد في القراءة.. نبشتُ مكتبتي طويلا.

وقبل أن يلفني لحاف النوم نحو دهاليز الحلم، أضاءَتْ شاشة هاتفي برسالة على بريدي الإلكتروني، فتحتها لتُشعل ظلام غرفتي:

(قررتُ أن أكتبَ لكِ باتجاهِ الهَوى، لكنني أخافُ حين أكتبُ لكِ، أتجنُّب الخيبةَ والخَطأ فيما سأدوّن، فَلَكِ قُدرةٌ تتخطاني في حُسنِ تلميع المفردات، رأسي متجمّد على كتفي، مع ذلك سَـ أسأل! سلوى؛ ماذا لو رَقَصَتْ ستائر غرفتنا وتَناثَرَتْ علينا زُهورَها الحمراء المُطرّزة؟؟)

محبتي

يوسف

رفعت رأسي نحو ستائر غرفتي...

موجة ضحك عارمة انتابتني بعدما بَرَقَت في ظلام الغرفة كلّ تلك النجوم الفضية المطرّزة عليها!

(انتهت)

رواية "ثؤلول" من 2013 حتى 2015

المؤلف في سـطور

ميس خالد العثمان

- كاتبة وروائية من الكويت.
- عضو رابطة الأدباء في الكويت
- باحث أدبي في "العلاقات العامة" في "دار الآثار الإسلامية" في الكويت منذ أبريل 2013 حتى الآن
- محرر في "جريدة الفنون" الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت، منذ 2000 حتى 2008، ثم سكرتيرا للتحرير منذ 2008 - 2012.
- متخرجة من جامعة الكويت/ قسم الإعلام والاتصال 1999 2000.

صدر لها:

- "رحلة إلى أسرار الشرق القديم" نصوص سردية ، في كتاب آثاري/ سردي مشترك مع الباحث "عقيل عيدان" من إنتاج (دار الآثار الإسلامية) الكويت - 2014.

- "أفتحُ قوسًا وأُغلقهُ" سرد ذاتي 2013 دار العين/ مصر.
- "لم يستدل عليه" رواية 2011 عن دار العين/ مصر.
- "صلوات الأصابع" نصوص سردية 2010 عن دار العين/ مصر.
- "عقيدة رقص" رواية 2009 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت.
- "عرائس الصوف" رواية 2006 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت.
- "غرفة السماء" رواية 2004 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت.
- "أشياؤها الصغيرة" قصص 2003 عن دار قرطاس/ الكويت.
- "عبث" قصص 2001 عن دار قرطاس/ الكويت.

- حصلت روايتها "عرائس الصوف" على جائزة "ليلى العثمان" للإبداع السردي 2006.
- حصلت على جائزة "الشيخة باسمة المبارك" للقصص القصيرة 2004.
- أقامت عدة أمسيات سَردية في الكويت (رابطة الأدباء/ جمعية الخريجيين/ مهرجان القرين الثقافي التاسع 2003).

- شاركت في عدة فعاليات ثقافية خارج الكويت (البحرين 2003/ صلالة 2006/ الشارقة 2007).
- ترجمت معظم كتبها إلى لغة "برايل" للمكفوفين وهي مهداة لـ جمعية المكفوفين الكويتية.

البريد الإلكتروني:

Mais.justwrite@hotmail.co.uk

مع دميتي "الباربي" بشعرها الأشقر اللامع الذي أظل أمشطه حتى تلتصق رائحة "النايلون" في هواء الغرفة، كانت حواراتي السرية، تعلمت التمتمة بصوت هامس معها في غرفتي، ظلت دميتي "الباربي" مكان "سحر" و"ماما" و"جدتي نصرة"، بل كانت أنثاي القريبة المُنصتة لي دون زيف/ خوف أو تلّون، فالجمادات أيضا تدرك العذاب.

كنت طفلة لبست ثياب السيدات على عجل، بل.. على حين سقطة! فكيف ألهو بالدمى الشقراء بينما يركلني ابن الغريب وينبهني غيرةً؟ كبيرةً رغما عني، غبية.. منبوذة بشكل لا أفهمه، فكيف لهم أن يحملوني مسئولية ما حدث كله، بينما غابوا/ تلاشوا جميعهم عن اللحظة الأكثر قهراً وتعبًا، وانتبهوا في اللحظة ذاتها من مصيبتي/ مصيبتهم؟

الغلاف: عمرو عبد العزيز